جائزة عبد الحميد شومان لأدب الأطفال
(الرواية الفائزة بالجائزة دورة ٢٠١٣)

نسمات الأريج

رواية لليافعين

حسن صبري

١

بدأ يونسُ بن صفاء الدين القوصي يستعدّ للسفر، ويتهيأ نفسياً له.. تختلف هذه المرّة عن سابقاتِها.. كان في الماضي يشحذ همّته لمواجهةِ مخاطرِ البحرِ وغدراته، ويدّخر صبره لفراقٍ قد يطول عن موطنه، وعن أمّه، وعمّه، و«نسمات الأريج» خطيبته.. هم أعزّ من يعرف من أهله الأقربين. أما الآن فيزداد همّه وحيرته وانشغالُ باله كلما توقع اقترابَ موعد الرحيل.. لن تحضر نسمات الأريج لتوديعه على نيل الفسطاط.. يتمنى لو عقد قرانه عليها ليأخذها معه بعد استئذان صاحب التجارة الذي سيستأجره. بعض التجار يصطحبون زوجاتِهم وأولادَهم في رحلاتهم، وشهدت صحراء «عيذاب» ميلادَ طفلٍ لأحدِ التجار.. لديه طلبٌ سيسرّ به لعمّه.. ويسأل نفسه: «يا ترى هل سأقدر؟ وماذا سيكون ردّه؟ وهل ستفرح نسمات الأريج فتكون مسرّتها سبباً في شفائها؟».

ومع أنه طلبٌ هينٌ ولكن طبيعة يونس ورقة مشاعرِهِ الزائدة تضخّمه له، وتجعله يتحرّج من يسير الأمور.. باتت فكرة تأجيل السفر أو العدول عنه تراوده، ورهن الأمر بموقف العمِّ من طلبه.

لقد حان موسم رحلات تجّار التوابل ـ أو بمعنى أشمل: تجّار الكارم ـ من موانئ البحر الأحمر إلى ثغر عدن مع قدوم سفن التجارة إليها، تدفعها بواكير الرياح الموسمية في المحيط الهندي،

تحمل التوابل والبهار، والعطور والبخور، والعقاقير الطبية، والأصباغ، وسواها من السلع الكارمية العديدة.. لم يكن يونس واحداً من هؤلاء التجار، وأكثرهم من المشاهير الموسرين.. ولم يكن قد استقرّ بعد ـ رغم تجاوزه الثالثة والعشرين بقليل ـ على حرفةٍ معينةٍ يشتهر بها في الحاضر أو مستقبلاً ؛ كأن يقول أصدقاؤه ومعارفه وزبائنه: الأسطى يونس الحدّاد أو الخيّاط أو الإسكاف مثلاً.. كان متعدّدَ المهن، لا يمتنع عن أداء أيّ عملٍ ولو شاقاً، مادام شريفاً يأتي برزقٍ حلالٍ طيب.. فما جدوى طاقة الشباب إن لم تكن للعمل؟ لا يهمّ الأجرُ إنْ قلّ أو كثر.. المهمّ أن تحلّ بالمال بركة الله فيصير أضعافاً كثيرة. يونس يساعد عمّه الشيخ جمال الدين أحياناً في تجارة الأقمشة بسوق القمّاشين.. يصحبه إلى الفسطاط حيث ملتقى تجارة الكارم؛ ليشتري أثواب القماش الواردة من الهند والصين وبلاد أوروبا.. هناك تعرّف يونسَ كبارُ التجار..أعجبتهم أخلاقه الحسنة، فطلبوه للشغل معهم، وصحبوه في رحلاتهم إلى بلاد الله.. سافر إلى ساحل شرق أفريقيا، والهند، وجزر المحيط الهندي، وقام برحلةٍ عبر موانئ البحر المتوسط في مطلع فصل الربيع الماضي ووصل إلى مدينة البندقية.. كان للقوافل حمالٌ لنقل البضائع، وحارسٌ أمينٌ، وعلى السفائن بحارٌ ضمن البحارة، أو نجّارٌ إذا لزم الأمر؛ لإصلاح شراعٍ أو معالجة ثقب.

لم يعترض عمّه جمال الدين أو يتبرّم منْ عمل ابن أخيه أغلب الأوقات مع الآخرين، فهو يحبّه، ويرى في خروجه للعمل اكتسابَ خبراتٍ جديدةٍ واسعةٍ، واختلاطاً بأجناسٍ عديدةٍ من الناس، ومعرفة لغاتهم وطبائعهم، وغير ذلك من فوائد الأسفار. نشأ يونس

يتيم الأب منذ صغره، وتربّى في كنفِ أمّه، وعناية عمّه.. العمّ لا يبخل عليه بمالٍ أو نصيحةٍ.. بقي يساعد الأم الحانية في نفقات ولدها حتى أصبح قادراً على الكسب.. يشكر جمال الدين ربّه على نعمة الستر التي تظلّهم جميعاً.. لم يرزق بولدٍ فجعله ابنه، ولمّا صار شاباً جميلاً عرض عليه الزواج من ابنته الوحيدة نسمات الأريج؛ وقد استشعر ما بينهما من مودةٍ واستلطافٍ متبادلٍ، فوافق الشابُ المهذّبُ الوسيمُ وطارَ فرحاً.

يداوم يونس على زيارة عمّه، ويحرص على لقائه قبل السفر.. من المحال أن يسافر دون أن يودّعه وينال دعواته له بالسلامة، ويرى نسمات الأريج، وبخاصةٍ في تلك الظروف العصيبة.. يمضي في الطريق إلى بيت عمّه بحي الأزهر هذه المرّة وعقله يموج بالأفكار، وقلبُه كسيرٌ حزينٌ من أجل ابنة العمّ الحبيبة.. كم يشفق عليها!.. فقدت أمها منذ سنوات قليلة، واليوم تشتدّ حاجتها إلى عطفها وحنانها فلا تجدها إلى جوارها.. لابدّ أن مثل تلك الخواطر الحزينة تجول ببالها، فيزيد كربُها.. يتذكر يوم الخطوبة وكيف كان يضيء وجهها بابتسامة جميلة يزينها الحياء، ويتحسّر.. كانت في تمام جمالها وكمال عافيتها. يحدث يونس نفسه: «لا أدري ماذا أصابها.. أعينُ حاسدةٍ أو كيدُ ساحرة؟!».

ونسمات مرمى لسهام عيون الحسّاد لحسنها وذكائها.. كانا يحلمان بالزفاف السعيد، وإذا بمرضٍ غامضٍ ينقضّ عليها نفْساً ثم جسداً. يذبلها السقم شيئاً فشيئاً.. يصعب على قلبه رؤيتها كالأقحوانة الذاوية.. لله الأمر أولاً وآخراً، ومنه الصحة والمرض.

حمل يونس شيئاً من الرمّان لبيت عمه؛ الفاكهة المحببة إلى

نسمات.. استقبله العمُّ كالمعتاد بوجهٍ بشوش وقلبٍ صافي الوداد.. جمعتهما الأريكة الخشبية.. سأله يونس عن أحوالٍ الخطيبة.. تغيّر وجه الشيخ جمال الدين وبان عليه شيءٌ ممّا يتكتم من أساه.. أجاب على ابن شقيقه:

– هي كما غادرتها في الزيارة السابقة تقريباً.. لم تزل نادرة الكلام.. وإذا نطقت لا يبين من كلامها شيءٌ كأنها طفلة تتعلم النطق.. دائماً حزينة ساهمة.. وقد جدّ عليها زيادة في شرود الذهن والخوف.. وأظنّ أن بعضَ التهيؤات الغريبة تتراءى لها!

قال يونس يمهّد لما يريد:

– أرى يا عمّي أن شيئاً من الترويح عن النفس وتبديل المناظر فيه فائدة ترتجى.

قال العم:

– وهل قصّرنا في ذلك.. لقد طفنا بها بساتين القاهرة وحدائقها ومتنزهاتِها.. وذهبنا إلى فم الخليج وعين الصيرة وسور مجرى العيون.. وزارتْ بركة الأزبكية، وشاهدت القصور الجميلة لأمراء المماليك وأعيانهم من حولها.. فهل تغيّر شيءٌ؟

قال يونس:

– أنا أعني أماكن أخرى.. أقصد ركوبَ البحر...

قاطعه عمّه:

– ألم نصحبها إلى جزيرة الروضة ومقياس النيل وشهدت موكب السلطان الناصر محمد واحتفالاته بوفاء النيل، وركبنا قارباً في ليلٍ تضيئه مشاعل المراكب في مشهدٍ بهيجٍ؟

قالَ يونس:

– أريدها رحلة طويلة هادئة في البحار وطوافاً بموانئَ وجزائرَ ومدائنَ جديدة.

فطن عمّه إلى غايته في التعجيل بعقد القران فقال:

– لا أظنّ الظرفَ مناسباً لذلك.. لاداعي للعجلة يا يونس فقد يأتي الضررُ من حيث تتوقع المنفعة.

قال في إحباطٍ:

– تلحّ عليّ الآن فكرة إرجاء السفر!

فوجئ العم.. نطق بعد إطراقة قصيرة:

– عذراً يا ولدي.. وجودك هنا لا فائدة من ورائه.. سافرْ يا يونس وتوكّل على الله ففي السفر رزقٌ أكيدٌ بمشيئة ربّنا!

استأذن يونس في طلب الأوراق الخاصة بمرض نسمات، والوصفات الطبيّة والأدوية التي كتبها الأطباء، على أمل أن تسمح له الفرصة بمقابلة أحدٍ يأخذ منه المشورة، فسلّمه عمّه كيساً يحوي ما طلب.

أراد يونس أن يلقي نظرة على «نسمات الأريج».. طرق أبوها باب حجرتها.. لم تردّ.. توجّس يونس.. رفرف قلبه.. فتح عمّه الباب وسبقه إلى الداخل، ثم سمح له بالدخول.. وجدها متدثرة في فراشها.. توجّعت نفسه لشحوب وجهها.. انتقى ثمرة رمّان، تركها بجوارها وانصرف.

***

عاد للدار حزيناً.. كان يريد قدراً من النوم، لراحة العقل والجسم معاً، يعينه علي السعي للرزق، وقد انتوى أن يذهب في الصباح إلى فندق الكارم بالفسطاط ـ مجتمع التجارة وملتقى

التجار ونزُلهم ـ لعلّه يجد فرصة جيدة مع إحدى القوافل المسافرة، فلم يكن قد اتفق على عملٍ بعد.. إذا لم يوفق فباستطاعته مرافقة المسافرين إلى مدينة قوصٍ في صعيد مصر؛ وهي محطة تجارية مهمة، ومن هناك يعبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب على البحر الأحمر.. لا شكّ أنه سيلتحق بعملٍ مناسب خلال تنقله بين مراكز التجارة وتبدأ رحلته.. المهمّ أن يغفوَ قليلاً.. أغمض عينيه.. وأخيراً كان لسطوة النوم الغلبة!

٢

انطلق يونسُ إلى الفُسْطاط في الصباح الباكر.. جعل يدنو من فندق الكارم.. كان المكان من حوله يعجّ بالضجيج والحركة.. حمّالون يهرولون بما ينقلون من بضائعَ إلى الدوابِ من جمالٍ وبغالٍ وحميرٍ.. تجار من شتى الأقطار أو مناديب عنهم يعقدون الصفقات.. مترجمون يقرّبون ما بين الألسن والأفكار.. كتبة يحرّرون العقود.. قبّانيون بموازينهم يقدّرون الأوزان.. مراقبون يفحصون السلع ويمنعون أي تلاعبٍ في الموازينِ والأسعارِ.

استشعر يونس جواً من التفاؤلِ على الوجوه، ولاحظ الهمسات والغمغمات بين العاملين.. استوقف بائعَ عرقسوس جوّالاً.. صبّ له كوباً من المشروب بحركةٍ راقصةٍ طريفةٍ متقنةٍ.. استفسر منه يونس عمّا يلاحظ من وجوهٍ مستبشرةٍ.. أخبره البائع أن شائعاتٍ تسري بين الوافدين إلى الفندق منذ أمسِ بظهور سفينة الشيخ فخر الدين الخروبي الضائعة، بعد فقدان الأمل في العثور عليها.. سمع يونسُ عن افتقاد الشيخ لسفينةٍ بحمولتها النفيسة أثناء عودتها من بلاد الصين.. تأخرت قرابة الشهر عن موعد وصولها.. ربابين السفن وبحارتها وملاحوها يدركون صعوبة الملاحة في المحيط الهندي عامة، وكذلك في بعض مناطق البحر الأحمر؛ لكثرة مايعترض السفن من صخورٍ وشعابٍ مرجانيةٍ، وما يتهدّدها من

عواصفَ وأعاصيرَ.. وقد ثارت الأقاويل حول اختفائها.. ردّد بعضُ البحارة العائدون أنها غرقت بفعل ريح عاتيةٍ، واستقرّت في قاع المحيط ببضاعتها الثمينة من توابلَ وعقاقير طبيّة نادرةٍ، أحضرها الشيخ فخر الدين من الصين لمستشفاه الخيري الذي يُعالج به المرضى الفقراء مجاناً.. وشطح الخيال ببعضهم فزعموا أن جبال المغناطيس المختفية تحت سطح البحر قد جذبت المساميرَ الحديدية من السفينة فأغرقتها، أو انجذبت هي لما بها من حديدٍ للجبل المغناطيسي واصطدمت به.. استبعد يونسُ هذا الاحتمال.. لقد أبحر مرتين في هذه المياه وشاهد جبالاً كثيرة ولا يعرف كنه تلك الجبال المغناطيسية.. كما أن السفن التي تبحر خلاله تثبت ألواحُها بحبال الليف وتسقى بدهن سمك القرش؛ ربّما من أجل هذا الاعتقاد، بخلاف السفن المبحرة عبر بحر الروم أو البحر المتوسط.. رجح أنها وقعت في إيدي القراصنة بعد أن نقل لهم بعض الجواسيسِ أنها تحمل ثروة كبيرة من الذهب واللؤلؤ والياقوت والماس.. لا أحد يعرف حقيقة ماحدث.. الله وحده أعلم!

ابتهج يونسُ وقال في نفسهِ : فألٌ طيبٌ.. رجوع سفينة الشيخ فخر الدين.. هو رجلٌ سبّاقٌ إلى الخيرات والله لا يضيع أجر المحسنين.

ابتسم يونسُ يجاوبُ ابتسامة مترجمة لمشاعر قلب محب فرحٍ بالتلاقي.. تلاقى الوجهان وسط الزحام.. وجهٌ أسمرُ بشوشٌ ووجهٌ يونس الوادع .. تعانق الصديقان.. أبوبكر من تمبكتو، ويونس القوصي.. جلسا في ظلّ سدرةٍ بجوار سبيل «الخروبي».. أخبره أبو بكر أنه تزوّج بعد أن عاد من رحلة الحج العام قبل الماضي، وتذاكرا

لقاءهما في ميناء جدّة.. كان أبو بكر راجعاً من مكّة بعد أداء مناسك الحجّ مع جماعة من أهل تمبكتو في طريقهم إلى مصر، ومنها يواصلون الرحلة لبلادهم. وكان يونس بصحبة أحد التجار لجلب بضاعةٍ من هناك.

التقى يونس صديقه مصادفة مرة ثانية في مدينة «قوص» بصعيد مصر التي ترجع أصوله إليها.. كان أبو بكر قادماً مع قافلةٍ تجاريةٍ في طريقها جنوباً.. يعمل أبو بكر دليلا للقوافل عبر «درب الأربعين» الذي تقطعه الإبل في أربعين يوماً، ويبدأ من أسيوط في مصر وينتهي إلى غرب السودان، ومنها تواصل القوافل للحبشة في الشرق أو تتجه غرباً إلى تمبكتو في مالي، وإلى غانا في أقصى الغرب من أفريقيا .. خبرة ودربة بمسالك الصحراء ودروبها وواحاتها أخذها عن أبيه.

ها هي الصدفة تجمعهما للمرة الثالثة بالفسطاط.. لاحظ أبو بكر حيرة يونس.. سأله ما به.. حكى له عن ابنة عمه وخطيبته نسمات الأريج وما أصابها.. صارحه بتردده بين البقاء والسفر.. نصحه أبو بكر بالرحيل.. قال له:

– هبْ أنها زوجتك.. كيف تغامر باصطحابها وهي مريضة مع أنك خبرت مشقّات السفر وأخطاره؟.. وما يدريك بموافقة صاحبِ التجارةِ أو الربان على وجود زوجة أحد عمّاله على سفينته؟

أقنعه أبوبكر، وأزال بحديثه الرشيد ما يعتريه من وساوسَ.. أوحى له لقاءُ صديقهِ التمبكتي بفكرةٍ.. قفز إلى ذهنه شيخٌ جليلٌ رآه مع أبي بكر في جدّة، وأخبره ساعتها أنه أدّى معه فريضة الحجّ.. وحدثه عن غزارة قراءاته في مختلف العلوم.. كعلم تفسير

القرآن والحديث، والفلك والطب. سأله عنه فردّ:

– الشيخ أبو الثناء الكوثري.. أمازلتَ تذكره؟!

– يخطر ببالي الآن بقوةٍ غريبةٍ.. وأريد لقاءه!

دهش أبوبكر، واستنتج أن لمحنته دخلاً بالأمر.. قال:

– هو عالمٌ كبيرٌ لا ريب يقصده كلّ طالب حكمةٍ.. ولكنْ لم يجمعنا لقاءٌ منذ وصولنا لميناء عيذاب قادمَيْنِ من جدّة وافتراقنا هناك.

رنا يونس إلى أبي بكر في أملٍ وسأل:

– هل لديك عنوانه.. أو معلوماتٌ يمكن أن ترشدنا إليه؟

أجاب بعد لحظاتٍ من التفكير:

– ربما لمحته ذات مرة خارجاً من دكانٍ حلوانيّ قريبٍ من هنا.. لقد كنت أفكر به بشدّةٍ قبل ذلك بلحظاتٍ وأشتاق رؤيتهً.. حاولت اللحاق به دونما فائدة.. كان يمشي بخفةٍ عجيبةٍ برغم سنه حتى خلت قدميه لا تلامسان الأرض!

قال يونس:

– هو شيخٌ وعالمٌ عالي المنزلة كما قلتَ لي ولا بدّ أنه شخصية معروفة لبعض تجار الكارم، لأن منهم علماء وفقهاء وقضاة وأدباء.

قال أبوبكر:

– إذا سألنا يمكن أن نستدلَّ عليه.. لا يضلّ من يسأل كما يُقال.. ولكن فيمَ تريده؟

أخرج يونس من ثيابه الكيس الذي أخذه من عمّه.. فتحه فأسفر عن مجموعة رقاعٍ مخطوطةٍ.. ناولها لأبي بكر فقلّبها بين يديه حائراً.. وقال ليونس:

– هذه المخطوطات ـ وبعضها مكتوبٌ حديثاً بماء الزعفران ـ تحوي تحضيرات علاجية كما فهمت.. تتكون من بعض العقاقير من البذور والأوراق والأزهار وخشب الشجر ولحائه.

وافقه يونس وأخبره أنها كذلك، وقد وصفها الأطباء لخطيبته في أماكن مختلفة مثل دار العلاج السلطاني وغيرها، وجميعها لم تأتِ بالنتيجة المأمولة.. وقال وهو يعيد الورق إلى الكيس ويطويه ويضعه في جيبه:

– أدعو الله أن ألتقي الشيخ أبا الثناء قبل السفر فقد أسمع منه خيراً فيما يخصّ نسمات الأريج!

ربت أبو بكر على كتفِ صديقه:

– سماعك الخير منه هو أمرٌ مؤكدٌ.. لكني أشكّ في أن تحظى منه بأكثرَ من ذلك.. أخبرني أثناء رحلة الحج أنه ليس بطبيبٍ محترفٍ ولم يكن كذلك يوماً ما.. وأنه هجر الاهتمام بالطبّ منذ سنواتٍ طوالٍ وتفرغ للعلوم الأخرى.

قال يونس في رجاءٍ:

– دعنا نحاول ولن نخسر شيئاً.

قال أبو بكر:

– الرجلُ كثيرُ الترحال ولا يستقرّ طويلاً بمكانٍ.. قد يتعبنا البحثُ عنه ويضيع جهدنا سدى في النهاية.

رأى أبو بكر في عينيّ يونسَ شعاعَ أملٍ فأراد ألا يطفئه.. قرّر أن يشاركه السؤال عنه.. ابتسم وقال له:

– لم أفطر إلى الآن.. هيا إلى «كَرَمِ الله» الحلواني الذي رأيت عنده الشيخ الكوثري أو تهيأ لي ذلك.. لديه حلوى وفطيرٌ لذيذ

بالقشدة والعسل.. سنأكل سوياً ونسأل عنه.. وقد يواتينا الحظّ فنصادفه هناك!

قام الصديقان.. مرّا بحمزة المزملاتي خادم السبيل.. بادلهم السلام في بشاشةٍ وهو يساعد السقّاء في إفراغ ماءِ القربةِ في حوض كبير لسقاية الدواب بجوار السبيل.. قال لهما بفرحةٍ:

- الآن أتى الخبرُ اليقين.. جاء به عبدُ الله السقاء للتوّ من مرسى الفسطاط!

أخبرهم السقاء أنه بينما كان يجلب الماء من النيل شاهد الشيخ فخر الدين يبتسم سعيداً وهو يتلقى التهاني بعودة السفينة التائهة.. اتضح أن عاصفة هوجاءَ مزقت أشرعتها وأطاحت بصواريها.. وشاء الله أن تجنح إلى جزيرةٍ مرجانيةٍ غير مأهولةٍ في المحيط.. وبقيت بها حتى تحسّن الجو، وأصلحها البحّارة وواصلوا رحلة العودة ووصلوا سالمين.. وسبقتهم إحدى السفن لتزفّ البشرى السعيدة إلى عيذاب.

كانوا مسرورين، فذلك التاجر يحبه الجميع ويرجون له الخير.. قال حمزة وهو يفسح الطريق لبضعة جمالٍ عطاشٍ تتزود بالماء استعداداً للسفر الطويل:

- هذا السبيل من بعض منشآت أقامها الشيخ فخر الدين لأعمال البرّ.. وهو صدقة جارية على روح والديه.. ولذا بثّ الله في قلبي الاطمئنان وكنت على ثقةٍ من عدم خسارته.

قال عبد الله:

- يا بركة دعاءِ الوالدين والناسِ الطيبين!

وبينما كانوا يتحدثون حطّ عصفورٌ على كوز ماء بالسبيل،

وأمال رأسه بعد التفاتاتٍ سريعةٍ حذرةٍ.. سكنوا وصمتوا جميعاً حتى ارتوى العصفور.. شاهدوه وهو يرفع رأسه نحو السماء منتشياً كأنما يشكر ربّه، وطار للسدرة.

قال عبد الله السقاء:

– من يدري.. ربما كان عصفورٌ كهذا، ارتوى من ماء السبيل، سبباً في عودة السفينة.. فتبارك الله جلّت قدرته.

***

دخل أبو بكر محل الحلوى يتبعه يونس.. رحّب بهما البائع البدين.. طلب إليه التمبكتي أن يأتي لهما بفطيرتين بالعسل والقشدة.. جاء الرجل بالمطلوب.. وفي أثناء الأكل لاحظ البائع قلق أبي بكر ورفيقه، وكثرة تلفتهما، وتحديقهما إلى الزبائن.. استشفّ أن لهما غرضاً آخر من حضورهما، فبادرهما قائلاً في لطفٍ ودهاءٍ:

– هل من خدمةٍ أخرى غير الفطير؟

قال أبوبكر:

– حلواك لا مثيل لها يا أخي كرم الله.. وقبل أن تحضر لنا قطعتي كنافة؛ لتكونا مسك الختام، أريد أن أسألك عن شخصٍ نودّ لقاءه!

قال البائع بنبرةٍ صادقةٍ:

– بكل ترحابٍ.. من هو؟

قال يونس بلهفةٍ:

– شيخٌ وقورٌ اسمُهُ أبو الثناء.

هتف الحلواني:

– مولانا الكوثري!

قال أبو بكر:

– رأيته على عتبة دكانِكَ ذات يومٍ.

قال مسروراً:

– وزارني في الأسبوع الماضي وتناول البقلاوة!

قال يونس:

– يبدو أنه واحدٌ من عملائك يا كرم؟

قال وابتسامة يشرق بها وجهه المستدير:

– يا ليته يكون.. كل مرّة يجيء فيها إلى هنا يزيد الرزقُ بإذن الله ويزدحم الدكان بالزبائن.. إنه أبو البركات!

قال يونس:

– من فضلك أخبرنا أين نجده الآن؟

قال كرم الله:

– لا أحد يعرف الجواب عن سؤالك هذا على وجه اليقين.. لكنني سمعته يقول لشخصٍ إنه يعيش هذه الأيام بخلوته في جبل المقطم!

سأل أبو بكر:

– وأين تلك الخلوة بالتحديد؟

أجاب:

– في الجبل.. والعلم عند الله!

تركاه حائِرَيْن.. وماكادا يغادران المحلّ حتى أسرع نحوهما فتى ذو بشرةٍ سمراءَ.. قال وهو يكاد يلهث:

– بحثتُ عنكَ في الفندق والسوق.. الحمد لله أن وجدتكَ.. المركبُ جاهزة!

سأله:

- هل شحنت الصندوق يا عبد القيّوم؟

- نعم.. أنزلته من فندق الكارم وشحنته في المركب.

ابتسم أبو بكر وحملق إليه:

- أخاف نسيانك!

أكد له أنه نقل الصندوق إلى المركب.. ودفع اهتمامُ أبي بكر بذلك الصندوق يونسَ إلى سؤاله عمّا به.. أخبره أنه مليءٌ بالمصاحف الشريفة، أهداها تاجرٌ يُدعى الشيخ سراج الكارمي ليقرأها الناس في مساجد تمبكتو.

أصرّ أبو بكر ألا يترك صديقه، واستحلفه يونس بالله أن يمضي إلى أسيوط ليرافق القافلة عبر درب الأربعين.. وافق أبو بكر على مضضٍ.. ودّع صديقه وتمنى له التوفيق، ومضى مع الفتى.

***

استمرّ يونسُ في السؤال عن الشيخ أبي الثناء، ولم تختلف الإجابة لدى أغلبية من سُئلوا: الكوثري في المقطم!

قرّر يونس الذهاب إلى جبل المقطم.. أذن الظهر، فعرّج إلى جامع عمرو بن العاص ليصلي.. عقب الصلاة استلفته شيخٌ عجوزٌ بلحيةٍ بيضاءَ، يتربع برواقٍ من أروقةِ الجامع، ويرتدي جلباباً داكناً وطاقية، ويداري بعض وجهه بشالٍ ناصعِ البيَاض.. حيّاه يونسُ ومدّ يده إليه بقطعة نقودٍ.. ردّها الرجل وشكرَه وقال:

- الحمد لله معي مايكفيني ويزيد!

خطر ليونس أن يسأله.. فسأله :

- أتعرف شيخاً اسمه أبو الثناء الكوثري؟

أجابه الشيخ:

- أظنّ ذلك!

- تعني أنك لا تعرفه حقّ المعرفة؟

أجاب:

- لا ينبغي لأحدٍ أن يدّعيَ أنه يعرف إنساناً تمامَ المعرفة حتى نفسه.. فكمال العلم لعلاّم الغيوب.

قال متلهفاً:

- لا يهمّ.. دلني فقط عليه أثابك الله!

قال الشيخ:

- ستجده حتماً بشرط صدق النية!

قال يونس وهو يرنو بدهشةٍ إلى سبحةٍ من العاجِ الأصلي المطعّمِ بالفضّة والفيروز بين أصابعه:

- النية صادقة طيبة.

قال الشيخ:

- ستلقاه إن كنت تريده حقاً وسيعينك الله.. اِذهبْ للمقطم واعتمدْ على الخالق.. قد يرسل إليك علاماتٍ.. انتبه لها تهتدِ إليه!

مشى الشيخ.. شيّعه يونس بنظراته وهو يمضي خفيف الخطى حتى اختفى في لحظات قليلة كأنه تبخر في الهواء!

سار يونس دقائق كالشارد وقد اشتدت حيرته.. حسبه عابرَ سبيل يطلب إحساناً.. فمن أين له تلك السبحة الثمينة العجيبة؟!

اًستأجر حماراً كسباً للوقت، وولى وجهه ناحية الجبل!

لاحت قلعة الجبل، والعسكر المملوكية.. بلغ المقطم ووقف أمامه مشتت الفكر والنظرات، يسأل نفسه: أيّ طريق أسلك ولأيّ اتجاهٍ أحثّ خطاي؟!

٣

بينما يقف يونس أمام الهضبة الممتدّة مستغرقاً في أفكاره، صدرتْ صيحة أقرب إلى صفيرٍ مخيفٍ.. تطلّع للسماء، فالتقطت عينه مشهداً عُجاباً.. حدأة سوداء تنقضّ من الفضاء على حمامةٍ بريةٍ، فسقوط مفاجئ للحدأة، فانطلاق الحمامة جهة الشرق!

حدث كلّ شيءٍ في طرفة عينٍ.. وبينما يتابع الحمامة البرّية الناجية، لاح صيادٌ يحمل قوسه وسهامه من وراءِ صخرةٍ.. راح يتفحّص الحدأة الصريعة بعينيه، والسهم الراشق في صدرها.. لاحظ وجود يونس فقال له دَهِشاً:

– يالها من صدفةٍ.. حدثٌ من الصعب أن يتكرّر دون تدبيرٍ محكمٍ مرتين في العمر!

قال يونس:

– أحسنت الرمية أيها الرامي البارع الحاذق!

ضحك الصياد، فسأله يونس ما يضحكه؟

أجاب:

– لأنك نَعتني بالبراعة والحذق!

دهش وقال:

– كيف لا؟ لقد أحسنت صنعاً أيها القناص الأريب بإنقاذك الحمامة من بين مخالب الطائر الجارح؟

ابتسم وقال:

- الحقّ أنني قصدت العكس.. رشقتُ بسهمي الحمامة فأصاب الحدأة بغير قصدٍ لحظة انقضاضها وصرعها.. لا أدري كيف وقع كل ذلك بتلك السرعة المذهلة !

تبادلا نظرات الدهشة.. وسأله يونس:

- هل تأتي إلى هنا كثيراً؟

- أحياناً.. لِمَ تسأل؟

- أريد خلوة الشيخ أبي الثناء.

فكر لحظاتٍ وقال:

- هذا الاسم ليس غريباً على أذني.. سمعت به من قبل.. إنه يقيم بمكانٍ غير بعيدٍ.. ولكنني لا أدري أين خلوته على وجه الدقة!

تركه الصياد ومشى.. أخذ يونس يتلفت حوله متحيّراً لأيّ وجهةٍ يمضي؟

تذكر الحمامة.. لقد نجتْ وطارتْ جهة مشرق الشمس.. أتكون تلك إشارة ما كما قال الشيخ ذو المسبحة العاجية المطعّمة؟

واتخذ يونس سبيله في الجبل سالكاً اتجاه طيران الحمامة نفسه.

***

بلغ منحدراً متدرج الارتفاع.. ارتقى فيه ليجد نفسَه أمام مساحةٍ واسعةٍ منبسطةٍ نبتت فيها بعضُ النباتات الشوكية والزهور البرية. رأى غلاماً لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره في يمينه

عصا، يجلس فوق حجرٍ، وقلة من الغنم ترعى من حوله .

تعجب يونس من وجوده في هذه البقعة المنعزلة، وسأله:

– هل تسكن في موضع قريب؟

حدق إليه الراعي الصغير في توجس وأجاب:

– يذهب الرعاة إلى حيث يوجد طعامٌ مباحٌ لأغنامهم!

عاد يسأله:

– ألا تخشى على نفسك وغنمك من الذئاب؟

– إذا قدّر الله فسيأتيك الذئب حتي بابِ دارِك!

أعجب يونس بإجابات الراعي الذكية.. جلس يحاوره.. عرف أن اسمه نائل، يسكن في بيت من الطين عند سفح الجبل.. أحوالهما متشابهة لحدٍ كبير.. فقد نائل أباه في طفولته ويعيش مع أمه.. حكى له أنه حزينٌ لأن قطيعه الصغير نقص حملاً.. أكله ذئبٌ تسلل إلى حظيرة دارهم.

وأشار لنعجةٍ ترقد إلى جواره:

– هذه أمّه.. حزينة جداً لفقدان ابنها.. فلا تمأمئ أو تمرح كما كانت، وقلّت شهيتها للطعام.. فجئتُ بها إلى هنا عساها تفرح وترجع لسابق عهدها!

راح يمسح على شعرها في حنو.. ابتسم يونس، وتمنى للنعجة الشفاء.. سلّم على الراعي النابه ومشَى مشرّقاً.. بعد خطواتٍ قليلةٍ توقف كأنه تذكّر شيئاً.. استدار وسأل الصبي:

– يقولون إن بهذا الجبل شيخاً كبيرَ السنّ اسمه الكوثري.. هل تعرف سكنه؟

نفى نائل معرفته بمسكن ذلك الشيخ ولم ينكر أنه رآه.

راح يمعن التفكير.. استوقف يونس:

- أظنّك تسير في الطريق الصحيح!

***

واصل السير وتوجّه إلى الله أن يجد الشيخ قبل الغروب بوقتٍ كافٍ، وإلا فسيضطر للرجوع ومواصلة البحث في اليوم التالي.

بعد مسيرة ما يقارب نصف الساعة قعد يستريح في ظلّ شجرة، وشرب من زجاجةِ ماءٍ كان أحضرها.. سمع حفيف أوراقٍ علو رأسه، وإذا بثعبانٍ ضخمٍ يهبط زاحفاً على فرعٍ غليظٍ قريبٍ من الأرض، وتدلّى منه متعلقاً بذيله الملتف حول الغصنِ.

تماسك يونس، وتجمّد في مكانه، وحبس أنفاسه، متحاشياً إصدارَ أيّ حركةٍ يمكن أن تثير الثعبان!

شعر يونس بالخطر.. صار الثعبان على الأرض بكامله، وراح يتلوى ويتجه صوبه.. ظهر نمرٌ كأنما انشقت الأرض عنه.. وثب إلى الثعبان مزمجراً.. جعل النمر يزوم، والثعبان يصدر فحيحه.. دارت معركة حامية، وجرى صراعٌ عنيفٌ بين قوة العضلات ومرونتها.. رجحت كفة النمر الجسور وانسحب الثعبان مؤثراً النجاة بحياته.

كان يونس يتابع تلك المصارعة العجيبة في ذهولٍ.. لا يدري من أين جاء ذلك النمر في اللحظة المناسبة تماماً؟!.

أخذ ينظر للنمر البطل مسلمّاً أمره لله.. انتهى القتالُ بانتصاره المبين على الزاحف الرهيب، فهل فتح النصرُ شهيته لمعركةٍ جديدةٍ هي أهون كثيراً من الأولى؟ وهل حان الآن دوره ؟

ازداد عجبُ يونس حين استلقى النمر على جنبِه قبالته لاهثاً كقطةٍ كبيرةٍ أليفةٍ.. وجعل يرنو إليه في وداعةٍ.

كانت نظرات صديقة أحسّ يونس لها بالأمان، وشجّعته علي المضيّ، فمشى في هدوءٍ وكلّ همّه الهروبُ من هذا الوحش الذي لا يأمن غدره.

نهض النمر واعترض سبيله.. دهش يونس واستدار ليسير في الاتجاه المعاكس، وإذا بالنمر يسدّ عليه الطريق!

اتخذ سكة أخرى، فتركه النمر يمضي هذه المرة، واكتشف يونس أنه لا يزال يمشي في اتجاه المشرق. أترى النمرُ هداه للطريق الصحيح؟

بعد بضع دقائق وجد النمر إلى جانبه.. واصل السير في جرأةٍ، وظلّ النمر إلى جواره كأنه يحرسه بإخلاص كلب وفيّ.

لاح كهفٌ تحفّه أغصانُ شجرة سنطٍ.. علت زمجرة النمر، فخرج من الكهف شيخٌ كبير ذو لحيةٍ بيضاء، يتوكأعلى عصا من الأبنوس. جرى النمر إليه وراح يتمسح في ثوبه، والشيخ يمسح على رقبته في حنانٍ!

أشار للنمرً قائلاً: انصرف يا مهاب!

مضى النمر واستلقى على جانبه قريباً من الشيخ.

رحّب الشيخُ الوقورُ بضيفه الشاب.. رأى فيه يونس جلال العلماء وهيبتهم.. قدّم إليه نفسه، وسأله ليطمئن قلبه:

- أنت الشيخ أبو الثناء الكوثري؟

ابتسم:

- نعم يا بني.. شرفتني بحضورك لمسكني المتواضع.

- العفو يا شيخنا.. أنا من شرف بلقائك.

دعاه للجلوس على مقعدٍ حجرى ذي حشيةٍ رقيقة واتجه إلى

آخرَ مماثلٍ أمامه ولكنه بدون حشية، وهمّ أن يجلس. لاحظ يونس ذلك، فقام وطلب إلى الشيخ أن يتبادلا المقعدين.. أبى الشيخ وقال في لطفٍ وهو يجلس:

– ذاك مقعد الضيوف.. راحتي في مقعدي هذا فأرحني يا يونس!

قصّ على الشيخ سبب مجيئه، وأراه ما أحضر من مخطوطات الوصفات الطبية، ورجاه أن يصف دواءً لنسمات الأريج يشفيها قبل أن يسافر للعمل.. أصغى إليه الشيخ باهتمام، وهو يهزّ رأسه من آنٍ إلى آخر، حتى فرغ يونس من كلامه.. سأله أبو الثناء:

– هل كنت ستتحمل المشاق لو لم تكنْ تلك الفتاة محبوبتك ومخطوبة لك؟

لم يعِ يونس السؤال جيداً فأوضح الشيخ الكوثري:

– أعنَي إذا كانت نسمات الأريج بنت عمك فقط فهل كنت تجازف من أجلها؟

أجاب:

– نعم.. لمجرد صلة القربى.. فما بالك إذا كان عمّي صاحب أفضالٍ.. هذا أقلّ ما يجبُ ولو على سبيل الوفاء وردّ شيءٍ من الجميل.

سأله:

– صارحني يا ولدي.. ما الحال لو كانت المريضة جارة لك؟

ردّ عليه يونس بقوّة:

– لا فرق بين قريبةٍ وغريبةٍ.. سأسعى للمساعدة طاقة جهدي.. مريضاً كان أم مريضة، فالأمر سواء.

تكلّم يونس بكل الصدق، وكانت لهجته تشي بصراحته ونبالته.. صمت الشيخ وحسب الزائر أنه يفكر في العلاج وسيفوه به.. ولكن خاب ظنه عندما نطق بسؤالٍ في النهاية: إلى أين ينوي أن يسافر؟

أجابه يونس:

– لا أدري إلى وقتنا هذا.. ربما يأخذني النيل مع تياره نحو الشمال إلى رشيد أو دمياط أو إلى الإسكندرية ومنها إلى أوروبا.. أو يمضي المركب للجنوب.. إلى قوص، وأقطع المسافة لعيذاب أو القصير على ظهر بعيرٍ.. ثم تقلني سفينة عبر البحر الأحمر إلى المحيط الشاسع العظيم!

ابتسم أبو الثناء:

– أو تكمل من قوص إلى أسيوط ومنها إلى درب الأربعين ثم إلى بلاد أفريقيا!

وحكى له بشيءٍ من التفصيل عن المرافئ والمدن التجارية المهمّة.. أبدى يونس دهشته لمعرفة الشيخ بطرق التجارة ومراكزها في مصر والعالم.

قال الشيخ:

– ما أكثر المسالكَ وكلها يؤدي بعضها لبعض.. لا تعجب يا يونس، فقد بدأتُ تجارة الكارم في مقتبل شبابي، واعتزلتها في أواسط سنيّ الكهولة لأتفرغ لما تميلُ إليه نفسي.

روى الشيخ بعض ذكرياته، وقال أسماء عددٍ من تجار الهند وسيلان وجاوة وسومطرة، وكيف هداهم الله لدين الإسلام على يديه وأيدي زملائه من التجار.. علق يونس قائلاً:

– لمست بنفسي جهود تجار الكارم في الدعوة إلى سبيل الله

بالحكمة والموعظة الحسنة خلال رحلاتهم في جميع الأقطار التي بلغوها.. ومنهم علماء يمتازون بغزارة العلم مثلك يا شيخنا.. وتلك صورة سامية من صور الجهاد لنشر دين الله.

قال الشيخ:

- مهلاً يا يونس.. انتشر الإسلام بإرادة الله قبل أيّ شيءٍ، وبيسر تعاليمه وسماحته.. وكان تجار التوابل والبهار قدوة حسنة لأهل تلك البلاد من غير المسلمين، فاجتذبوهم وحببوا الإسلام إلى قلوبهم؛ بأمانتهم في المعاملة ووفائهم بالعهود، ولفتوا أنظارهم وعقولهم إلي فرائضه بحرصهم على الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والحجّ.. فنطقوا بالشهادتين عن رضا وقناعةٍ.

انتظر يونس على أملٍ أن يحدثه الشيخ عن الطب والدواء، لكنه عاد يسأله: أيّ طريق يفضّل أن يسلك في رحلتهِ؟

جاوبه:

- تركتُ ذلك لاختيار ربّ العالمين!

ردّ الشيخ:

- ونعم الاختيار.. لا بدّ أن لقلبك ميلاً إلي وجهة معينة أكثر من الأخري.. ستكون لك إذا كان الله راضياً عنك.. ولكن لا تنسَ قوله تعالى: ﴿وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم﴾.. وسيصبح الأمر عندئذٍ امتحاناً لإيمانك وجَلَدِكَ!

همّ يونس بالكلام فضمّ الشيخ الكوثري أصابعه وأشار: أن اصبرْ.

وقال:

- أرى أن الوقت مناسبٌ لنأكل لقمة معاً، وأروي لك حكاية

قديمة أرويها دوماً لمن أحبّ، ربما سمعتها من أبيك يوماً.

– أخبرتك يا سيدي أن أبي لقي ربه وأنا طفلٌ لمّا يتنبّهْ إلى الدنيا.

قال الشيخ:

– ربما من أمّك أو عمّك أو جدّك أو جدّتك أو جيرانك.. فهي قصة متداولة متوارثة!

أحسّ يونس أن الشيخ يضيع الوقت ويتهرّب من تلبية ما جاء من أجله، فتحلّى بالصبر.. هذا أقصى ما يستطيع.. إما ذلك أو الرحيل!

أحضر الشيخ قطعة من الجبن القديم ورغيفين من الخبز اليابس، وافترش وضيفه حصيرة بالية.. شرع الشيخ يحكي بينما يأكلان.. بدأ الكلام بذكر الله والصلاة والسلام على النبي المختار.

حكى الشيخ أبو الثناء الكوثري لجليسه يونس بن صفاء الدين القوصي فقال:

«ذهب رجلٌ مع ناقته إلى السوق.. نزل من عليها ليبتاع شيئاً، وعندما التفت لم يجدها.. سأل عنها وبحث عنها حتى استيأس من العثور عليها.. وقال الناس له: استعوض الله فيها.

مشى الرجل حزيناً فقابله رجلٌ هَرِمٌ ينتحب.. أشفق عليه وسأله عن سرّ جزعه وبكائه، فأجابه الرجل بأن حفيده تاه منه.. كان يمسك بيده، ثمّ تركه ليشتري له الحلوى من بائعٍ عابرٍ، ولمّا استدار ليعطيه الحلوى لم يجده.

استمع الرجل الذي ضاعت ناقته إلى الذي تاه ولده.. قال في

نفسه: مصيبة أهون من مصيبةٍ. وقرر أن يشاركه البحث عن الصغير المفتقد.

أخلص الرجل في البحث عن الولد، واجتهد فيه بلا جدوى، وبينما هو جالسٌ يستريح أمام بيت خربٍ مهجورٍ ذي حديقة، سمع بكاءَ طفلٍ.. دخل فوجد ولداً دامع العينين وَجِلاً.. كان هو الصغير التائه.. ووقعت عينه على ناقته في الحديقة نفسها باركة تحت شجرةٍ.. أعاد الصبيّ إلى جدّه، واستعاد الناقة الشاردة ورجع الجميع فرحين».

انتهى الشيخ من سرد الحكاية.. لا يذكر يونس أنه سمعها في صغره من قبل برغم حفظ أمّه لحكاياتٍ كثيرةٍ.. لا ينكر إعجابه بها رغم دهشته من رغبة الشيخ في سردها.. مرّ الوقت في حضرة الشيخ دون أن يشعر بملٍ أو ضجر.. هاهو قرص الشمس يتقلب بين الحمرة والصفرة، ويهبط شيئاً فشيئاً خلف المرتفع.. سيهجم الظلام فيزيد من وحشة المكان، ولم يظفر من أبي الثناء بإجابةٍ شافيةٍ!

بادره الشيخ كأنما عقل يونس كتابٌ مفتوحٌ أمامه:

– قلت إن ابنة عمّك نسمات الأريج مريضة.

قال يونس بلهفةٍ:

– وما جئت إلا لإيجاد علاجٍ لها.

ردّ الشيخ:

– وإذا مَرِضتُ فهَوَ يشفين.

– سبحانه وتعالى جعل لكلّ شيئاً سبباً!

– لست طبيباً ولاأدعي الطبّ!

اعترى يونس إحباطٌ شديدٌ، وفوجئ بالرجل يقول وهو يصوّب نحوه عينين خضراوين صافيتين تأتلقان فطنة وذكاءً:

– أخمّن أن قلبك يميل إلى جهة الشرق!

أجاب:

– الصدق ما تقول.. إلى الناحية التي فرّت إليها الحمامة البريّة الناجية من بين مخالب الحدأة وهدتني بمشيئةِ الله إلى طريقك!

هزّ الشيخ رأسه وكأنه يعرف ما حدث.. وسأل:

– لِمَ الشرقُ.. بصرف النظر عن موضوع الحمامة ؟

– في الشرق عقاقيرُ شتى من أعشاب ومعادنَ وأحجارٍ.. كما أن بها حكماء كثراً وعلماء.. وأطباء نطساً.. وصيادلة وعشّابين وعطارين.

أيدّه أبو الثناء وقال:

– أعلم أن الله سييسر لك الأمور وسيكون ذلك برهانَ رضاه عن هواك!

أطرق يونس وفكر في المغادرة.. قال الشيخ:

– إذا كان نصيبك السفر للشرق فاسأل عن عشبة الشفاء!

تهللت قسمات يونس وقد عاد إليه الأمل.. سأل أبا الثناء عن عشبة الشفاء تلك وماذا تكون وأين يعثر عليها؟

أجاب الشيخ:

– خلق الله لكل داءٍ دواءً.. ولابدّ أن عشبة الشفاء موجودة في مكانٍ ما.. سلْ عنها وتذكرْ وأنت تبحث عنها حكاية الناقة الضائعة التي قصصتها عليك!

استأذن يونس في العودة لداره وقد حلّ الليل.. ألحّ عليه الشيخ أن يبيت ليلته بصحبته. أبى يونس وهمّ بالمسير.. صفق أبو الثناء ونادى: يامهاب!

أقبل النمر، فمسح الشيخ على ظهره وأمر يونس بالركوب. خاف يونس.. طمأنه الشيخ:

– لن آمن عليك في هذه الظلمة إلاّ ومهاب معك.. اركب يابني والله يحفظك!

صافحه وشدّ على يده، وحدق إليه طويلاً، وذكر له أنه قد يقابل في رحلته عدداً من الرجال منهم: صابر وصالح وراشد ويلتقي أحمد مرتين أو ثلاثاً.. وكذلك سمكة وفتاة .. وطلب منه أن يزوره بعد إيابه من السفر.

امتطى يونس ظهر النمر واستقرّ عليه، فانطلق به تضيء عيناه الدروب الوعرة الحالكة كأنهما كريّتانِ فوسفوريتانِ متوهجتان.. وخلال لحظات أوصله إلى سفح الجبل، وتركه واختفى في الظلام!

٤

انطبع حـديثُ الشـيخ أبي الثناء الكوثري في ذهن يونس بن صفاء الدين القوصي.. لن ينساه أو ينمحي من ذاكرته ما دام فيه نفسٌ يتردد.. مضى اللقاء سريعاً، والآن يسائل نفسه هل لبث معه دهراً أو بعضَ يوم؟! وهل كان معه حقاً منذ دقائق أو من مئات السنين؟ فما أعجبٍ إحساسَنا بالزمن!

بدأ يساوره الشكّ.. هل ذلك الرجل حقيقة أم وهمٌ.. صورة العجوز المجهول الذي رآه في جامع عمرو تزاحم في خياله منظر الشيخ أبي الثناء وتدفعها نحو الحافة أحياناً.. يحاول استرجاع الصوتين في ذاكرته، والمقارنة بين النبرات وطريقة نطق الكلمات، فلا يهتدي إلى شيءٍ قاطع، وتزداد حيرته.. ربما يتشابه الشيخان، برغم أنه لم يدقق النظر في الجزء الظاهر من ملامح عجوز الجامع.. لكنْ ما أشدّ الشبه بين المسنين أشكالاً وأصواتاً!

يستحضر ما يفرقهما ليريح ظنونه.. لم يشاهد بيد الكوثري سبحة بينما كانت بين أنامل الرجل الآخر واحدة هي بين السُبَح تحفة ثمينة.. ولم يكن الرجل الغامض يعتمد على عكازٍ في المشي، بل كان يسير على قدميه بخفةِ غزالٍ.. في حين أن لدى أبي الثناء عصا أبنوسية قيمة، وإن بدا أنه لا يتوكأ عليها حقيقة، ويحملها لمآرب أخرى كالزينة، أو على سبيل العادة، أو زيادة في الوقار.

الآن عرف يونسُ مقصده، ويرجو الله أن يكتب له السفر إلى حيث يميل قلبه؛ إلى المشرق، وأن يدلّه إلى عشبة الشفاء.. لن يتوانى في البحث عنها.. سيسأل عنها كلّ من يتوسّم فيه حكمة وعلماً.

يحسّ بدنو السفر.. سيمضي إلى أمّه بمنطقة «قنطرة السباع» حيث تسكن في بيتٍ صغيرٍ بجوار مسجد السيدة زينب رضي الله عنها.. سيقبل يديها وجبينها كما تعوّد.. سيطلب دعاءها ورضاها، ويأخذ بعض حاجاته ويعاود إلى الفسطاط.

***

مع الانطلاقة الجماعية الأولى لزقزقات العصافير في أوائل الصبح الجديد، كان يونس يعلق خرجه على كتفه، ويدخل فندق الكارم بالفسطاط.

سلّم على من يعرف من عمّاله، وقال له أحدُهم:

- يحتاجون على وجه السرعة إلى عامل أمينٍ نشيطٍ على مركب التاجر شهاب الدين الإسكندري الدمشقي، يكون مشرفاً على سير العمل، لأن من كان يمارسه تركه لخلافٍ مع النوتي.

استبشر يونس خيراً؛ فشهاب الدين تاجرٌ ذو سمعةٍ طيبةٍ، متاجره في الإسكندرية ودمشق، يشتهر بالجود والسخاء مع أجرائه.. استفسر عن وجهة السفر.. أخبره أنها للإسكندرية.. سيحمل إليها كمية كبيرة من أجود أنواع الفلفل الأسود والقرفة القادمة من جزيرة سيلان، سيعرضها على بعض التجار البنادقة والبرتغاليين هناك.

كان العرض مغرياً.. الإسكندرية قريبة.. لكنّ هذا يعني الاتجاه

شمالاً.. لا ضير.. لن تستغرق المهمة سوى بضعة أيام على أكثر تقدير، يؤوب منها بما رزقه ربّه، ويذهب بعدها في رحلةٍ شرقيةٍ، أو يبدأ السفر من هناك مع تجارةٍ متجهةٍ صوبَ الشرقِ.

ماذا إن واصل شهاب الدين وأبحر إلى بلاد الفرنج؟ هل يسافر معه أو يعتذر عن عدم السفر؟

ماكان ليرفضَ أوّلَ رزقٍ جاءهُ.. يقول المثل الشعبي: أوّل بختٍ لا يُعوّض.. ولتكنْ مشيئة اللهِ.

مضى من فوره إلى مرسى المراكب النيلية، واتفق مع وكيل التاجر على مقدار الأجرة ونوعية العمل.. آثر يونس أن يأخذ أجره بالكامل دفعة واحدة من يد الشيخ شهاب الدين فور اكتمال الصفقة.. هذا أدعى لحلول البركة، ونيل شيءٍ من كرمه وفيض يديه.. قابل النوتي المسؤول عن المركب.. توافقا، واستلم العمل.

شرع يونسُ يعاون الحمالين في نقل البضائع لشحنها على المركب، والإشراف عليهم في الوقت نفسه؛ لحبه الشديد للعمل، ولتشجيع العاملين وإشعارهم أنّه زميلٌ لهم، لا يتميز بشيءٍ عنهم.

سار المركب يتهادى باسم الله في النهر العظيم أوان فيضانه.. يسري في يونس شعورٌ غريبٌ.. كلما أوغل في البحر شمالاً زاد انقباض صدره وإحساسه بالكآبة.. تهفو نفسه إلى بحر العرب وخليج عدن.. عُمان وأشجار اللبان.. الهند وميناءي قاليقوط وكولم على ساحلها الغربي.. وجزر المحيط.. تخايله عشبة الشفاء.. أخرج الكيس الجلدي من خرجه.. أخذ يتأمّل رقاع الوصفات.. يتذكّر نسمات الأريج.. يصغي لحديث قلبه: الدواءُ هناك.. هناك!

تمنى أن يهدّئ الله فورانَ حيرته بإشارة: «علامة إلهية ياربّ!».

كان اليوم صحواً مشمساً ويونس يجلس قريباً من الدفة في هدأة القيلولة، وقد غفا معظم من بالمركب.. هدّهم التعب وداعبهم الهواء فأطبقوا الأجفان ونعسوا.. لم يشهد أحدٌ غير يونس ذلك المنظر المريع.. قارب صيدٍ صغيرٍ بلا قائدٍ.. بداخله رضيعٌ نائمٌ.. تتقاذفه الأمواج، وتدفعه إلى دوّامةٍ عنيفةٍ.. ستشدّه وتدور به.. ستقلبه وتبتلعه وتغرقه.. همس يونس:

- يا إلهي!!

لم يكن أمامه لحظة يضيعها.. قفز في الماء، وسبح إلى القارب وأخذ يدفعه نحو الشاطئ.. لاحت على البرّ سيدة تصرخ وتولول وتلوّح بيديها في التياعٍ، وبعض الناس يستطلعون ويتساءلون ما الخبر؟!

أوصل القارب وشرع يربطه بالحبل أمام كوخها.. أسرعت المرأة في لهفةٍ تميل على الصغير وتحتضنته والدموع بعينيها وهي تردد: أيوب.. أيوب!

شكرتْ يونسَ الذي أنقذ ابنها من موتٍ محققٍ.. وأثنى الحضور على مروءة الشاب وشهامته وهو من ألقى بنفسه في لجّة الماء وأنقذ الرضيع. وبينما الواقفون يتفرّقون، خرجت من الكوخ امرأة أكبر سناً تفرك عينيها وتستفسر عمّا حدث. وبمجرد أن رأتها أم الصغير، ألقت في وجهها تهمة التدبير للتخلص من صغيرها بفكّ حبل المركب والتظاهر بالنوم. كانت المتهمة ـ من وجهة نظر أم الطفل ـ هي الزوجة الأولى لأبيه.. اتهمتها الأم بكراهية أيوب؛ لأنها عاقرٌ لا تنجب، ومحاولة الكيد لها بإغراق وحيدها. والسيدة الأخرى تحاول نفي التهمة البشعة عنها بلا

جدوى. كلتا السيّدتين أصرّت على موقفها: الأمّ على الاتهام، والزوجة الأولى على الإنكار.. علا شجارهما وبدأ الجيران يجتمعون ثانية من حولهما.. طلب يونس والحاضرون من الأم التروّي ورواية ما حدث بهدوءٍ.

أخبرتهم أنها كانت مع ابنها وزوجها صياد السمك في القارب منذ قليل.. عادوا وربط الصياد قاربه بحبلٍ إلى شجرةٍ، وذهب للسوق ليبيع ما اصطاد من سمكٍ.. تركت صغيرها النائم في القارب كما فعلت عدة مرات من قبل حتى لا توقظه.. ربما كانت هدهدة القارب بفعل الموج الهادئ قرب الشاطئ تساعده على النوم. مضت للكوخ تعدّ الغداء لزوجها.. انفكّ الحبل بفعل فاعلٍ من حول الشجرة وحدث ما حدث.. قالت ذلك وهي تحدق إلى المرأة الأخرى حانقة.

لاحظ يونس أن بعض الصبية يختبئون بين أشجار الموز القائمة في حقلِ جرجيرٍ ضيق يمتد على طول الشاطئ، ويرقبون ما يجري باهتمامٍ ويتهامسون!

مضى يونسٌ إلى الشجرة المربوط إليها القارب، وألقى نظرة إلى آثار الأقدام التي انطبعت على الطين على الطريق الموصل إليها.

نادى على هؤلاء الأولاد، ففرّ اثنانِ منهم واختفيا عن الأنظار.. صفّ يونس الباقين أمامه، وأخذ يحدق إليهم، ووجه إليهم جميعاً الاتهام، وقال إن آثار أقدامهم وشتْ بهم.

دافع كلّ واحدٍ عن نفسه، وأجمعوا على أن أحد الولدين الهاربين هو من أطلق قارب جارهم الصياد ليلهوا به قليلاً، لكنهم

تراجعوا، وركبه الثاني لمسافةٍ قصيرةٍ، وعندما وجد التيار قوياً خاف وقفز منه وعام للشاطئ!.

فرح الجميع بظهور الحقّ، ونظر يونس للطفل الغافي على كتف أمه.. حمله عنها، فصحا وراح يبكي بشدّة.. ناوله لزوجة أبيه فهدهته وهي تحتويه بنظراتها الحنون. سكت الصغير واستكان بين راحتيها وابتسم.

كان يونس يتابع ما يحدث بإمعانٍ.. قال:

– تيقنت الآن من براءة هذه السيدة!

اعتذرت أم أيوب لها، وتعانقت السيدتان، وتعاهدتا على التعامل بالحسنى والثقة المتبادلة.

حضر الصيادُ على عجلٍ وقد أخبره بعضهم بما جرى.. شكر يونس لأنه أنجى ابنه الوحيدَ أيوب الذي رزقه به الله بعد صبرِ عشرِ سنواتٍ، وأسماه بهذا الاسم ليكون سميّاً لجّده.. تعارفا.. ودعاه أبو أيوب لأكلة سمكٍ طازجٍ، وأصرّ على أن تجمعهم مائدة واحدة.

لبّى يونسُ الدعوة، وبعد الغداء قدّم الصياد له خاتماً من نحاس بفصٍ زجاجيّ أخضر، عليه نقوشٌ دقيقة مطموسة بفعل الزمن والصدأ.. قال إنه ورثه عن أبيه ويدعى أيوب، وأبوه عن جدّه الذي يقال إنه وجده في بطنِ سمكةٍ.. قال أبو أيوب:

– هذا الخاتم عزيزٌ علىَ نفسي.. أبي كان يقول عنه إنه جلاّب الحظ السعيد لصاحب الحظ السعيد، وذو بركةٍ لشخصٍ بعينه.. أتمنى أن تكون أنت.. أهديه إليك لأن الله كتب النجاة لولدي على يديكَ وهو أعزّ عندي من جميع كنوز الأرض!

قبله يونس شاكراً وقد راق له.. أحسّ براحةِ نفسٍ غريبةٍ بمجرد أن وضعه في إصبعه الوسطى الذي لاءمَهُ تماماً.. ولكنه تعجب لمّا رأى تواضع عيشة الصياد.. كوخ، وحصيرة، وكنبة خشبية بليت كسوتها.. وفي الخارج زير للماء، وموقد بسيط يوقد بالحطب لطهي الطعام.

فطن أبو أيوب لما يجول بعقل ضيفه فضحك.. سأله ماذا أضحكه؟

أجاب الصيادُ الفقيرُ:

- لا أبي ولا جدي ولا حتى أنا كنا من أصحاب الحظ الموعودين!

صمت قليلاً ثمّ قال في جديةٍ:

- أخي يونس لا تنسَ أن الحظ السعيد ليس مالاً كثيراً وجواهرَ وقصوراً فقط!

قال يونس قبل أن يغادرهم إن ما حدث درسٌ عظيمُ النفعِ لهم جميعاً.. صافحه أبو أيوب بامتنانٍ، ورفع كفيه نحو السماء:

- وفقك ربي إلى ماتريد وحققَ ما تتمنى.

ردّد الجميع: آمين.

همس يونس لنفسه: حسبي هذا الدعاء من قلوبٍ صافيةٍ!

وانصرف مسروراً، وترك تلك الأسرة على محبةٍ ووئامٍ، داعيا الله أن يديم بينهم المعروف.

***

- المركب!!

صاح يونس.. واعتلى تلّة صغيرة على الشاطئ.. رأى مركب

الشيخ شهاب الدين بعيدة.. بعيدة.. كحمامةٍ بيضاءَ فوق الماء.. لقد أنساه أيوبُ وأسرته المركب تماماً.. أو في الحقيقة أخّره الله عنها لحكمةٍ شاءها.. لقد ترك خرجه وأشياءه في المركب.. قفز بسرواله وقميصه وصِداره في النيل لينقذ أيوب الصغير.. لديه بضعة دراهم في ملابسه.. ولكن كيس الوصفات العلاجية أين هو؟ تحسّس جيوبه.. حمداً لله.. مازال معه.. خشي أن يكون أصابه بللٌ أعطب رقاعه.. أخرجه وتفحّص محتواه.. من فضل الله أنه من الجلد لا يتأثر سريعاً بالماء، وأنه أحكم رباطه.

اطمأنّ واتخذ سبيله عائداً إلى ساحل الفُسطاط.

٥

سمع يونس صوتاً ينادي باسمه وسط جلبة المكان.. وجد الشيخ جرير بن تاج الدين الكَوْلَي أمام فندق الكارم.. يعرفه الشيخ جرير جيداً.. خرج يونس معه في تجارةٍ إلى جزائر المالديف وسقطرى ومدغشقر في المحيط الهندي.. يتركز أكثر نشاطه في هذه المناطق، ويلقب بالكَوْلَي لكثرة أعماله في ميناء «كَوْلَم» على ساحل الملبار غربي الهند. تزوج بفتاةٍ من هناك.. شقيقة أحد أثرياء التجار الهنود، وكان يدعى «بيراندا».. أسلم وعائلته جميعاً.. اختار اسم «مالك» بعد إسلامه، وظلت أخته على اسمها الأول «نيراجا».. لم يمانع زوجُها عندما عرف أن معناه: زهرة اللوتس.. واستأذنته أن يسمح لها بالبقاء في بلدها حتى تضع أوّل مولودٍ لها.

أخبره جرير أنه اشترى كثيراً من البضائعِ المتنوعةِ الواردةِ من بلاد الفرنجة.. منسوجات من الصوف والجوخ.. الفراء.. الحديد.. الملح وزيت الزيتون.. الشبّ والصابون.. ومن مصر: السكر والبلسم والأقمشة القطنية والكتانية.. سيحملها إلى عدن ليبيعها هناك. سيمضي إلى ساحل الملبار حيث زوجته نيراجا وأصهاره.. سيبقى هناك.. وقد تكمل السفينة إلى الصين بدونه إذا كانت الأجواء ملائمة.. طلب إلى يونس أن يرافقه في هذه الرحلة، فوافق فرحاً.

يا لرأفة الله بعباده !

كان بنفسه هوى لذلك.. بدّل الله الحال في ساعة من الزمن، من الشمال إلى الجنوب.. ثم إلى الشرق حيث تهفو نفسه.. ستكون قوص محطته الأولى.. المدينة العريقة التي ينتمي لها.. ربما كان يعشق الترحال إلى هناك بالفطرة، تشدّه هذه الأمكنة لا شعورياً إليها!

شُحنتِ المراكبُ.. بسطت قلوعها.. انطلقت من الفسطاط إلى الجنوب تدفع أشرعتها ريحُ الشمال.

***

بلغوا مدينة قوص على الجانب الشرقي للنيل بعد بضعة أيام، ولاحتْ أسوارُها الحجريّة.. سيستريحون ويبيتون ليلة فيها ثم يستأنفون الرحلة لعيذاب على ظهور الجمال.

نزل يونس لصلاة العصر في أحد مساجدها الكثيرة.. لقوص منزلة كبيرة في نفسه.. جذوره تمتد فيها، ولكنه وُلِدَ في القاهرة لأمٍ قاهريةٍ، ومع ذلك يعتريه شعورٌ بالزهو والنشوة وهو يسير بين بيوتٍ قوص المشيّدةِ بالأحجار كأنها آثار الأجداد القدماء، ويرى بساتينها الغنّاء.. زارها مرّة في طفولته بصحبة عمّهِ جمال الدين وكانت معهما نسمات الأريج.. لم يكن عمّه ينوي أخذها.. بكى يونس لأمّه وأوعز لها بضرورة وجود بنت عمّه.. هو وحيدٌ وهي كذلك. كيف يحلو السفر في غيابها؟ من يلعب معه ويؤنس وحدته؟.. يذكر أنه نزل بدار سيدةٍ عجوزٍ ربما في التسعين من عمرها، لكنها نشيطة، قويّة الذاكرة، متقدّة الذهن.. حازمة.. وطيبة كذلك.. عرف أنها جدّته لأبيه رحمهما الله.. أحبّها كثيراً..

لا ينسى حديقة الرمان.. كان الربيع.. وكانت أشجارها تتألّق بأزهارٍ حمراء.. الجلّنار.. يواصل مع نفسه حديث الذكريات:

«كانت أجمل زهرة رأتها عيناي.. أعجبت نسمات أيضاً بها.. قطفتُ زهرة فنهرتني جدتي.. قالت: هذه الزهرة ستصبح ثمرة رمّان.. حباتها مصفوفة كفصوصِ العقيق.. عجبتُ من ذلك.. وعيتُ لأوّل مرّةٍ كيف أن الزهور تغدو ثماراً.. صالحتني جدتي ووعدتني بهديةٍ من الرمّان بعد نضج الثمرات.. ووفتْ بوعدها.. أرسلت لي سلّة رمّان أواخرَ الخريف.. كان أحلى رمّان.. لا أحسبني سأذوق مثيله ما حييت.. أهديتُ بعضه لنسمات الأريج، فكان رأيها من رأيي.. ومن يومها صارت مولعة بالرمّان وأنا أيضاً».

صلّى يونس العصر، ومشى للنزهة في المدينة.. سمع صوت ربابةٍ فامتلأ قلبه بالحنين.. وجد شاباً يعزف في وقت الأصيل تحت شجرة جمّيز، ويغني بصوتٍ شجيّ غنوة عن السفر والغربة.. يذكر أنه كان مع أمه ذات عيدٍ حين عرف الربابة وسمعها أوّل مرّة.. شاهد كذلك ساحراً يعرض ألعابه في شادرٍ.. مازال يتردد صدى ندائه: اتفرج يا سلام.. عروس البحر بنصف درهمٍ!

رأى عروس البحر في صندوقٍ زجاجي.. نصفها الأسفل ذيلُ سمكةٍ ونصفها العلوي إنسانةٌ.. تأمّل وجهها.. كانت جميلة تشبه كثيراً نسمات الأريج.. ويوم عاد عمّه من الحجّ رسم الكعبة على واجهة بيته، ورسم جملاً، وسفينة، وعروسَ بحرٍ بوجه نسمات الأريج.. أحبّ الربابة.. كان يترقب بائع الرباب ويتبعه كلّما جاء.. سار وراءه ذات يوم.. تاه وبكى عندما وجد نفسه وحيداً وسط الحقول.. وجدته أمه ونهرته بشدّةٍ.. لم يتبْ عن حبّ الرباب..

اشترت أمه له ربابة عندما أحسّت تعلقه الشديد بها.. أتقن العزف عليها.. صوته كان حلواً، فإذا غنّى اجتمع من حوله الصحاب.. كان يطيب له الغناء على الربابة لنسمات الأريج.. لا يدري أين راحت ربابته.. انشغل عنها بالسفر والعمل.. لا بدّ أنها ضاعت منذ سنواتٍ طوال.

راح يتدانى.. رآه العازف ودعاه.. وجد إلى جانبه قفصاً من جريد النخل مليئاً بالربابات.. اكتشف أنه بائعٌ أتعبه الطواف بالقرى فجلس يستريح.. أصغى إليه.. اشترى منه ربابة وعزف وغنّى معه.

***

رجع يونس للمرسى.. نقل مع زملائه حمولة المراكب إلى ظهور البعير، وسارت القافلة نحو عيذاب.. كانت الاستراحات والأسبلة على طول الطريق لخدمة القوافل.. أنشأها سلاطين المماليك والأمراء وتجار الكارم وسواهم من أهل البرّ، واستأجروا العاملين الذين يطلق عليهم «المزملاتية» للقيام عليها؛ كحمزة المزملاتي بسبيل الخروبي في الفسطاط.. حرص السلاطين كذلك على إقامة المنشآت كالفنادق والخانات والأسواق والوكالات، لأهمية هذه التجارة لاقتصاد البلاد.. واهتموا بتأمين قوافل الكارم براً وبحراً، وتوفير نقاط الحراسة على الطرق التي تجتاز الصحارى مثل طريق قوص ـ عيذاب، وتطهيرها من اللصوص وقطاع الطرق.. وعلى الرغم من ذلك تقع بعض حوادث السطو والسلب والنهب بين الحين والآخر؛ لذلك يحرص التجار على ضمّ أفرادٍ يجيدون فنون القتال إلى قوافلهم كنوع من الحماية الخاصة.. وسعى يونس للمران،

وأجاد مهارات استعمال السلاح والدفاع عن النفس؛ لاستعمالها وقت الضرورة.

ولم يخلُ الأمر من متاعبَ!

بعد تناول عشاء جمع بين صاحب التجارة ويونس ورجال القافلة، كعادة جرير مع مرافقيه في سفرياته، أوقدوا ناراً وجلسوا يتسامرون.. عزف لهم يونس على ربابته وشاركه البعض بالغناء.. عند السحر استسلم الجميع للنوم، وبقي يونس ساهراً للحراسة.

قرب الفجر شعر بحركةٍ غريبةٍ خلف تلّ قريب، فاستلّ سيفه وأرهف السمع.. رأى جماعة من اللصوص على أحصنتهم يداهمون القافلة.. تسلل يونس وامتطى حصاناً وفاجأ اللصوص.. أخذ يكرّ عليهم ويبارزهم.. أصابهم الذهول من جسارته.. كأنه خمسة أو ستة فرسانٍ أشداء في واحدٍ.. تشتت جمع المهاجمين وفرّوا إلا رئيسهم.. كان رجلاً بالغ الشراسة والعناد.. صمد في مواجهة يونس وكاد يسقطه من فوق الحصان.. لكنّ يونسَ تدارك الموقف بثباتٍ، وكرّ على كبير اللصوص كرّة جريئة وأصابه بجرحٍ في كتفه.. استيقظ أفراد القافلة على الضجيج، وجروا إلى سيوفهم ورماحهم.. طاردوا فلول اللصوص حتى ابتعدوا واختفوا في الصحراء.

أثنى الشيخ جرير على يونس لجرأته ودفاعه الباسل عن تجارته.. أراد أن يكافئه.. اعتذر يونس في أدبٍ عن عدم قبول أيّ مكافأة وقال:

-ـ هذا من واجبات عملي وأنا أتقاضى عليه أجراً.

استأنفت الرحلة سيرها، وأفرادها يتحدثون عن شجاعة يونس

في مواجهة اللصوص ويعجبون من قوته.. يونس أيضاً يعجب من نفسه.. لا تنقصه جسارة القلب ولكن من أين جاءته تلك القوة الجبّارة؟

تذكّر الخاتم النحاسي وأخذ يتأمّله في إصبعه!

***

بلغت القافلة ثغر عيذاب بعد قرابة أسبوعين.. لم تمرَّ بأخطارٍ جديدة بخلاف مشاق السفر المعتادة؛ وطبيعة الصحراء.. كمرض أحد الجمال، أوهبوب عاصفةٍ رمليةٍ.

نُقلت البضائع من فوق ظهور الجمال إلى سفينةٍ كبيرةٍ مصنوعةٍ من خشب الساج الهندي، وهو نوعٌ من الخشب يتحمل البقاء في الماء لعشرات السنين، ترتفع عليها عدّة أشرعةٍ من خوص شجرِ الدوم.. انتظر ريّس السفينة بضعة أيام إلى أن تحسنت ظروف الجوّ، وقضوا الليلة التي تسبق السفرَ؛ المسماة «ليلة الوداع»، في الصلاة الجماعية والابتهال إلى الله، وسارت السفينة تمخر عباب البحر الأحمر.. عبرت مضيق باب المندب متجهة إلى المحيط بقيادة ريسٍ خبير بالإبحار في هذا الخضم المتلاطم، الزاخرة مياهه بأسرارها المجهولة وكنوزها الخبيئة.

***

رست السفينة على ساحل جزيرة سُقُطرَى.. الجزيرة التي ترسو عندها معظم السفن المتجهة إلى عدن.. تستقبلهم الطيور الملوّنة المغرّدة أينما ساروا وحلّوا.. تحلّق فوق رؤوسهم مشقشقة.. يبصرها يونس في كلّ الأماكن: على الأشجار والشجيرات التي لن تراها العين في أي بقعةٍ أخرى من بقاع العالم.. فوق الجبال

والتلول.. على الصخور التي نحتتها الريح فحولتها إلى جذوع أشجار وحيواناتٍ ضخمةٍ وحشراتٍ عملاقةٍ حجريةٍ، وإلى تماثيلَ يختلف الناظرون في تفسير أشكالها.. سعادة يونس بلغت منتهاها.. يقول في نفسه: «هل حقاً تحقق حلمي وخطت قدماي على جزيرة الأحلام والألغاز مرة أخرى؟!». يذكرها الشيخ جرير كثيراً ويعشقها.. ينزل عليها ليشتري الصبر السقطري الشهير، وأجود أنواع العنبر، والنباتات والأعشاب التي تداوي العلل والأسقام، ولا يوجد لها مثيلٌ في سواها من البلاد القريبة.. اختصّها الله بها.. تتبع الجزيرة حضرموت على بحر العرب، وإن كان يفصلهما مسافة طويلة.. نحو أسبوعين من الإبحار حتى الوصول لخليج عدن وبلاد اليمن.

غادر الشيخ جرير السفينة بصحبة الريس وبعض بحارتها وعمّالها ويونس من بينهم.. جلسوا يأكلون تحت شجرة غريبة المنظر تنبت في الأرض الصخرية تشبه المظلّة.. كانوا يلقون الطعام إلى الطيور الحائمات فتهبط لتلتقطها مطمئنة.. أخذ الشيخ جرير يتأمل معجباً الشجرة والأشجار التي تماثلها، كأنها مظلاتٌ خضرٌ مصطفة، والنحل رائحة غادية على أزهارها البيضاء.. قال إنه سيعقد لرجاله مسابقة بسيطة.. أخرج من جيبه قطعة من العملة الذهبية:

– هذا الدينار الذهبي جائزة لمن يذكر لي اسم هذه الشجرة!

وأشار للشجرة التي يجلسون في ظلّها وإلى مثيلاتها.. التفت الجميع نحوها، وراحوا يتبارون، والدينار براحةِ الشيخ يدفعه في الهواء ويلتقطه متبسماً.. تباينت الإجابات وكانت كلّها غير

صحيحةٍ. وبينما الجميع يتحلقون حول الشيخ ينتظرون الجواب الصحيح، برز شابٌ آسيوي القسمات من دغلٍ قريبٍ وفاجأهم:

- دمُ الأخَوَيْن!

التفتوا ليروا المتكلم، فبدا أن أغلبهم يعرفونه.. تبادلوا التحية، وكان يونس أكثر الحاضرين فرحة برؤيته.

تصافحا في حرارةٍ وقال يونس:

- أهلاً بالسومطري علي أرض سُقطرَى.. كنت أفكّر بك وما توقعت لقياك بهذه السرعة!

همس له السومطري:

- مادمنا ركابَ سفن.. فلابدّ أن تجمعنا الموانئُ والمدن!

واستكمالاً للعبة الشائقة التي أطلق شرارتها الشيخ جرير، هرول إليه الشاب الوافد يطالبه بالدينار الذهبي!

قال الشيخ مداعباً:

- المكافأة كبيرة فالدينار ليس بالشيء الهين.. اذكر أسماء أخرى لشجرة دم الأخوين!

أجاب السومطري:

- هي العندم.

قال جرير:

- سأريكم ما العندم!

صمتوا، وطلب سكينا فأعطاه أحدهم إياه.. أحدث شقاً بالشجرة فسال منها عصارة حمراءُ قرمزيّة تشبه الدمَ. تحرّكتِ الشفاه: سبحان الله!

وقال الشيخ جرير:

- تتجمّع العصارة الصمغية المسيلة من الشقوق التي يحدثونها في الشجرة، وتجفّ في فصوص حمراءَ.. يجمعونها ويبيعونها.. هكذا نحصل على دمِ الأخوين.. العقار الثمين المعروف.

وقال بيت الشعرِ القديم:

سبقتْ يداي له بعاجلِ طعنةٍ

ورشاشِ نافذةٍ بلونِ العندَمِ

وذكر أنه من شعرِ المعلقات لعنترة بن شداد أبي الفوارس.. يقول فيه الشاعر إنه وجّه للعدو طعنة نافذة ترشّ دماً كالعندم.

أعطى أحمدَ الدينارَ، وقال:

- إن هناك دنانيرَ أخرى لأن لهذه الشجرة عدّة أسماء أخرى.. وتُروى أحاديثُ كثيرة عنها.. ومازالت لديّ مسابقات أخرى طوال رحلتنا!

قال أحمد:

- صحبتك مؤنسة ومنهلك عذبٌ لا ينضب ومعك ننسى مشقات السفر.. ولكني لن أنعم طويلاً بصحبتك يا شيخ جرير لأني سأبحر بعد ساعاتٍ إلى ظفار مع تجارة للشيخ برهان البغدادي.. وسأحتفظ بدينارك كذكرى طيبة من إنسانٍ أحبّه!

انفرد يونس بصديقه الحميم أحمد سِنجايا؛ الملقب بالسومطري؛ لأنه من جزيرة سومطرة بالمحيط الهندي.. يعمل مترجماً لإجادته عدة لغات تمكنه من التعامل مع كثير من التجار من مختلف الجنسيات، وعقد الصفقات، وكتابة وترجمة العقود. فإلى جانب لهجة الملايو لغته الأم يتقن العربية جيداً والسواحلية لغة بلاد شرق إفريقيا والأمهرية الحبشية، والهندية وشيئاً من

لسان أهل الصين. لذلك يعرفه معظم تجار الكارم ويصطحبونه في سفرياتهم.

حكى يونس لأحمد عن مشكلته المؤرّقة.. مرض نسمات الأريج، وقال له إن الأمل يداعبه، ويدعو الله أن يجد في نباتات سقطرى النادرة دواءً لها.

قال أحمد سنجايا:

– لا أستطيع أن أفتيك في هذا الشأن لأن ما لديّ هو معرفة عامة بالعلاج، اكتسبتها بالسماع ومرافقة التجار وأرباب العطارة، لا عن دراسةٍ وممارسةٍ.. لي صديقٌ ذو حكمةٍ ودرايةٍ بالدواء مع أنه يعمل بصناعة الخزف وتلوينه، يُدعى الشيخ صالح الحضرمي.. لم أره منذ زمن طويل.. لا أعلم إن كان لا يزال حياً يُرزق أو توفّاه الله.. ما أسعدَ حظكَ إن عثرنا عليه!

قال يونس بخيبة أملٍ:

– وأين منا الآن حضرموت؟

قال أحمد:

– من قال إنه هناك.. الشيخ صالح يقيم هنا في سقطرى.

قال أحمد متلهفاً:

– تعالَ نذهب إليه!

أخبره أحمد أن ذلك الشيخ يحبّ هذه الجزيرة ويعيش في أحد الجبال القريبة من مرسى السفن.. قاما يبحثان عنه.. طافا بجبالٍ تكسوها الخضرة وترتفع فوقها الأشجار كالرايات.. شاهدا أنواعاً غريبة من الكائنات المائية كالسرطانات الملوّنة تتهادى قرب الشاطئ، والزواحف كالحرابيّ تكمن بين عشب الأودية.. تعبا من

السير وقال أحمد وقد تسرّب اليأس إلى نفسه:

– ما أكثر المرتفعاتِ ها هنا.. ربما ضللتُ الطريق أو التبس عليّ الأمر لمرور بضع سنوات منذ التقيته.. ربمّا عاد الشيخ صالح إلى حضرموت.. أنا أعرف عشيرته هناك وأعدك أن أسأل عنه قريباً.

لم يكن بوسعِ يونسَ إلا التسليم بإرادة الله وقضائه.. وبينما يسيران شعر السَومطري بالعطش، وتناهى إلى سمعه خريرُ ماءٍ يأتي من إحدى الجهات.. تتبعا مصدر الصوت الذي كان يقوى تدريجاً.. وقعت عيناهما على شلال ينحدر لطيفاً من جبلٍ وينساب في جدولٍ تحفّه الخضرة.. مال أحمد ينهل من الماء الزُلالً، وشرب يونس.

وما كادا يفرغان ويستديران للرجوع حتى أتاهما صوتٌ من فوق الجبل ينادي ويكرّر النداء:

– يا سومطري!

نظر أحمد إلى المُنادِي، وتهلل وجهه.. صاح يخاطبه:

– أين أنت يا رجل.. أتعبتنا في البحث عنك؟

فرح يونس وقد أدرك أنه الشيخ صالح الحضرمي الخزّاف.

ردّ عليه الرجل وهو يهبط في لهجةٍ عاتبةٍ:

– الطريق إليّ لا يتوّه ولكنك نسيتني!

نزل الرجل ونظر إليه يونس ملياً.. قدّر عمرَه فيما بين الخمسين والستين، وكانت مفاجأة له إذ تصوّره شيخاً طاعناً في السن.. كان ينتعل صندلاً من الجلد، ويرتدي قميصاً أخضر بكمين واسعين، ويحوط نصفه الأسفل إزارٌ كالحجيج، لكنه مخطط

بخطوطٍ عرضيةٍ داكنةٍ، ويلفّ حول رأسه عمامة ملوّنة.

تصافح الرجلان وتعانقا في مودةٍ بالغةٍ.. عاتبه الحضرمي لغيابه الذي طال، وذكّره بالشلال وبالجدولٍ وكم شربا من مائه الفرات، وقال الحضرمي:

- إن كنت نسيتهما فهل نسيت الزنجبيل؟!

قال أحمد:

- لا تؤاخذني يا صالحُ.. جَمالُ سقطرى وبهاؤها يكاد ينسيني حتى اسمي.. والله لا يوجد شبرٌ منها يخلو من طرفةٍ أو عجيبةٍ!

أجاب صالح متبسماً:

- وما تعلقها قلبي إلاّ لحسنِها الفتّان؟

عرّفه بمرافقه، فرحّب به، وصمّم على اصطحابهما إلى مسكنه.. سارا معه إليه.. كان كهفاً في جبلٍ تتراصّ أمام مدخله المجامر والأباريق والأواني الخزفية.. دخلا منزلاً عجباً صوّرته وشكلّتهّ الطبيعة بقدرة الخلاّق البديع، وزينته بتكويناتٍ صخريةٍ بديعةٍ على هيئة أعمدة من الصواعد والهوابط.

جلس الضيفان على صخرتين متقابلتين على شكل مقعدين طبيعيين.. انهمك صالحٌ في صنع مشروب الزنجبيل، ولما فرغ منه قدّمه لهما.. أخرج يونس الرقاع من الكيس الجلدي الذي غدا لا يفارق جيبه.. ومهّد السومطري للحديث بذكر مآثر الشاب وأخلاقه الحميدة، وترك ليونس الكلام، فقصّ على الشيخ صالح تفاصيل مرض نسمات وأراه الوصفات.

قال صالح:

- أرى أن خطيبتك أصابها نوعٌ من الفالج، وهذا يتفق مع رأي

أطباء المستشفى المنصوري في مصر كما أرى في الوصفة العلاجية.

وأثنى على أطباء ذلك المستشفى وصيادلته.

دهش يونس وسأله:

- هل سمعت به يا شيخ؟

قال صالح:

- كيف لم أسمع بهذا المستشفى الرائع الذي بناه السلطان المنصور قلاوون رحمه الله، وقد صار من معالم القاهرة ومضرب الأمثال كما أخبرني بعض الرحالة.

وأخبرهما أنه قابل الرحالة المغربي محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة في عدن، عند تاجرٍ اسمه ناصر الدين الفأري في وجود عشرين من التجار، وسمعه يتحدث عن ذلك المستشفى ويصفه بالفخامة والنظافة.

قال يونس باهتمام:

- شخّصت حالة نَسمات بالفالج فماذا يعني ذلك؟

أجاب:

- نوع من العجز أو الشلل ناتج من تعرض الرأس لصدمةٍ قوية بشيءٍ صلب، وقد تأتي من انفعالٍ زائدٍ أو حزنٍ كامنٍ أو فرحٍ شديدٍ، فيفقد المصاب النطق، أو يعتريه عجزٌ في حركةٍ أحدٍ أطرافه أو كلّها، يكون مؤقتاً في أغلب الأحوال.

قال له إن خطيبته لم تتعرض لارتطامٍ أو انفعالٍ كبيرٍ؛ لأنها هادئة الطباع متفائلة ودائمة الابتسام، وذكرٍ له أن شيخاً اسمه أبو الثناء الكوثري حدّثه عن دواء اسمه «عشبة الشفاء» سيداويها بإذن الله.

قال الحضرمي:

– التقيت هذاالشيخ الطيب ذات مرةٍ في صنعاء باليمن.. وهو ذو علمٍ وخلق.. لا أعرف عشبة الشفاء تلك، وأظنه يقصد شجرة الشفاء؛ وهيٍ الشجرة التي نطلق عليها هنا الشجرة المباركة واسمها عندنا «إحريب».

قال يونس في رجاءٍ:

– لعلّ مقصد الشيخ الكوثري أي دواءٍ نباتي يشفي ذاك المرض والسلام!

وسأله عنها.. قال الشيخ صالح:

– هي الشجرة السقطرية المعروفة بدم التنين أو دم العنقاء!

قال أحمد:

– أحسبك تتحدث عن شجرة دم الأخوين!

قال:

– نعم.. ويقال إن اسمها يعود إلى بدء الخليقة، لمّا قتل قابيل أخاه هابيل في أوّل جريمةٍ قتل بتاريخ البشر، سال الدم ونبتت في موضعه هذه الشجرة.

سأله السومطري دهشاً عن سبب تسميتها بدم التنين ودم العنقاء، فقال إن هناك من يقول إن قتالاً وقع بين تنينٍ وفيلٍ وسال الدم من التنين فنمت تلك الشجرة.. وفي أقوالٍ أخرى استبدلوا بالتنين العنقاءَ في ذلك الصراع الدامي!

قال يونس:

– ما أغرب إقران هذه الشجرة الجميلة بالدماء!

قال الشيخ صالح:

– صدقت يابني.. وهناك بعض الأسامي الأخرى لها كدم الغزال.. لكنها مجرد أسماء.. وتعدد الأسماء يدلّ على أهميّة المُسمَى.

وعدّد فوائدها الطبية، فذكر أنها تعالج الفالج والمعدة والكبد وتشفي الجروح وتحبس النزيف بجميع أنواعه.

ابتسم الحضرمي:

– ويمكن استخدام المادة الحمراء المستخرجة منها في أغراض غير العلاج كصباغة الشعر وتزيين الحوائط وزخرفة الآنية الخزفية.

وأراهم إبريقاً أحمر جميلاً من الخزف استعمل دم الأخوين في تلوينه.

قال أحمد:

– الحمد لله.. العلاجُ ميسورٌ وموجودٌ يا يونس.. لم يبقَ غير الجرعة وكيفية الاستخدام.

حدّد الحضرمي الجرعة وطريقة الاستعمال.. ملعقة من دم التنين على كوب ماء مغلي.. يترك حتى يبرد ثمّ يشرب مرة واحدة كل يوم لمدة أسبوع فيكون فيه الشفاء بأمر الله.

همّ يونس وأحمد بالانصراف فقال الشيخ صالح:

– مهلاً.. انا لم أنتهِ بعد من كلامي!

وشرح ليونس أنه قرأ في كتابٍ قديمٍ أن دم الأخوين المطلوب هو نوعٌ مخصوصٌ عالي الجودة لا يوجد إلّا على موضعٍ فوق جبلٍ في الجزيرة!

قال يونس من فوره:

– أنا مستعدٌ لتسلق الجبال من أجل الحصول على دواءٍ لنسمات الأريج.

قال صالح:

– يهون تسلّق الجبال أمام ما ينتظر الراغب في الدواء من مصاعبَ!

قال يونس قلقاً:

– ماذا تقصد؟!

–. يقال إن الشجرة المذكورة يحرسها مخلوقٌ غريبٌ، ويمنع أيّ أحدٍ من الاقتراب منها!

قال يونس:

– وما يكون؟

– يقول بعض البحّارة إنهم شاهدوه يهبط على قمّة الجبل ويصفونه بأنه يجمع بين التنين والعنقاء في شكله وصفاته!

ذكّر يونس صديقه بموعد إبحار سفينة برهان البغدادي، وضرورة مغادرته الآن إلى المرسى ليلحق بها. نهض السومطري وودّع صديقيه.. قال ليونس:

– وددت لو أبقى معك حتى تصل إلى ما تريد.. أدعو الله أن يوفقك.

فارقه.. ولكن قلب يونس كان يحدّثه أنه سيلتقي أحمد سِنجايا قريباً!

***

شوى الشيخ صالح سمكتين كبيرتين اشتراهما من أحد الصيادين، وتناول الغداء مع ضيفه.. توالت أسئلة يونس عن

الشجرة وحارسها الغريب.. كان الشيخ يقلّب صفحات الكتاب القديم الذي وجده في أحد الكهوف في بداية نزوله بالجزيرة، أثناء بحثه عن مكانٍ يؤويه؛ لحبه سكنى الأماكن الطبيعية.

قال عن صاحب الكتاب الأوّل:

- أظنه غريباً عن الجزيرة.. أحد الرحالة أو الباحثين عن كنوزها.. وأرجح أنه أحد السحرة؛ لأن دم الأخوين يستخدم في السحر ضمن استخداماته العديدة.. سجل مشاهداته اليومية.. ووصف الشجرة المعنية التي تتوسط حديقة من الشجر، وحدّد مكانها تماماً على جبال «حجهر».. وذكر بعض صفات حارسها وأحسست من وصفه أنه رأى الأشياء عن بعدٍ ربما رهبة من الاقتراب أو رغبة في مجرد التدوين.

قال يونس:

- ماذا قال في الكتاب عن ذلك المخلوق حارس الشجرة؟

- يقول الكتاب إنه يسكن فجوة أو مغارة في الجبل..

توقف الشيخ الحضرمي وطوى الكتاب ولزم الصمت.. قال له يونس:

- أعلم أنك تخشى أن يضعف حديث الكتاب عنه من عزيمتي.. اطمئن يا شيخ.. لقد عزمت على المضيّ للنهاية.. يجب أن أعرف كلَّ شيءٍ عن غريمي المحتمل قبل المواجهة!

ابتسم الحضرمي:

- غلبتني يا ولدي!

بادله يونس الابتسامة بأوسع منها:

- العفو.. قل أقنعتني!

وترك الحضرميّ له الكتاب.

***

ساعدت معلومات الكتاب على إيجازها في وضع خطةٍ أو تصوّرٍ للحصول على العقار من شجرة الشفاء.. وبدأ الاستعداد لرحلةٍ الصعود.

أعدّ الحضرمي المزيج السام الذي ذكر الكتاب القديم أنه يصرع الوحش الحارس سريعاً إذا استعمل بالمقدار المناسب، ويتركب من سمّ مستخلصٍ من خنفساء سامة، وبذور بعض النباتات، توضع على نصال السهام.

سار يونس مع الشيخ العليم بوديان الجزيرة ومرتفعاتها.. أخذا قليلاً من الماء والزاد لعلمهما بوفرة خيراتها من الثمار، والأسماك، ومصادر المياه العذبة.. أحضرا معهما السلاح، وقنينة السم، وحرصا على حمل بعض الأشياء البسيطة التي قد يحتاجانها في الرحلة كالحبال والخطاطيف والشموع.

بلغا المكان المنشود فجراً بعد مسيرة يومين. أديا الصلاة، وبعد استراحةٍ قصيرةٍ شرعا يصعدان الجبل.. اختار الشيخ صالح الذي يفوق الشباب عافية وحماسة طريقاً قليل الانحدار يرتقيان فيه.. كانا يستريحان على الأجزاء المنبسطة أثناء الصعود ثمّ يواصلان.. وعند ظهور مرتفعٍ شديد يستعينان بالحبل في الصعود.. استمرا يومين آخرين.. وفي مساء اليوم الثالث لاحت حديقة أشجار دم العنقاء أو التنين أو كليهما.. بضع شجرات تتوسطها شجرة تفوقها علواً وجمالاً.. بل تتفوق على جميع ما رآه يونس من شجر دم الأخوين في الجزيرة.. تزهو بالورق الأخضر الذي يشبه سيوفاً

صغيرة.. كانت حقيقة شجرة مختلفة.

آثر الرفيقان التريث، فمكثا يوماً آخر يراقبان حديقة التنين أو العنقاء.. لم يلحظا شيئا مريباً، ومرّت الساعات في هدوء.

في اليوم التالي تأهب يونس لدخول الحديقة.. تقدّم منها بحذر، يتبعه الحضرمي بقوسه وسهمه المغموس في السمّ، متحفزاً لإطلاقة في أية لحظة.

اقترب يونس خافق القلب.. فجأة سمع صفيراً حاداً كاد يصمّ أذنيه، يخالطه صوت جناحين يصفقان قادمين من جهة فجوة في الجبل.. تراجع مسرعاً وانبطح أرضاً، وشاهد الشيخ يطلق سهماً طاش في الهواء، فأشار له بعدم إطلاق سهمٍ ثانٍ والتواري خلف صخرة.

تسلل يونس واختبأ وراء جذع شجرة، وأخذ يراقب بحرص شديد ذلك الكائن الرهيب الذي يبدو أنه غادر للتوّ وكره.. كان يطابق كثيراً وصف الكاتب القديم ساحراً كان أو رحالة زائراً.

سأل يونس نفسه: «هل يشاهد الشيخ الحضرمي ما تراه عيناي؟!».

كان المخلوق يجمع بين خصائص الحيوانات الزاحفة والطيور.. لم يكن كبير الحجم كما كان يضخّمه له خياله.. كان كأكبر النسور حجماً، يشبه سحلية كبيرة بأربعة أرجل ذوات مخالب حادة، تغطيها حراشيف أو قشورٌ متراكبة، تغطي هذهِ القشور صدره أيضاً وتكون ما يشبه دروعاً مصفوفة.. يكسو جناحيه ريشٌ داكنُ الزرقةِ يلتمع تحت ضياء الشمس ويأتلق بألوان قوس قزح.. وينتهي عنقه الطويل المطوّق بريشٍ أبيضَ بفمٍ كفم الأفعى، ذي فكين أسنانهما كسمكةٍ

مفترسةٍ، وله رأسٌ يخرج منهما قرنان يتجهان للخلف، يتوسطهما عرفٌ كبير يشبه عُرف الديك!

طار وحطّ فوق الشجرة.. جعل يخدشها بمخالبه الحادةِ، ويلعق ما ينزّ من سائلها الأحمر بلسانه الخشن، الذي أحسّت عينا يونس بخشونته!

عاد الحارس الطائر الزاحف المخيف لوكره!

أسرع يونس إلى الحضرمي وتبادلا نظرات الدهشة.. أخذ الشيخ صالح يفتش في ثيابه متوجساً.. كان يحسّ بأنه يفتقد شيئاً ما.. صاح ملتاعاً:

- قارورة السم!

جرى مذعوراً يبحث عنها ولحق به يونس.. وجدها بين العشب في منحدرٍ أسفل الصخرة التي كان يختبئ خلفها.. أمسك بها آسفاً وقال:

- لقد انسكب معظم ما كانت تحتويه وتشربته الأرض.. باقي جرعة واحدة فقط من السمّ تكفي لسقي سهم واحد!

لام نفسه لأنه لم يحاذر أثناء هرولته، ولم يحكم غلق الزجاجة بسدادتها!

قال:

- ليتني أحكمت التصويب وليتكَ عاجلت الطائر بطعنةٍ أو ضربةٍ من سيفك!

خفف عنه يونس وقال:

- لعلّ الله أراد بنا خيراً فلم نهاجمه.. الطائر شبعان الآن بعد أن تناول طعامه من دم التنين، ولا بدّ أنه يغطّ في النوم.. هذه

فرصتنا.. وفقك الله إلى إحكام التسديد هذه المرة إن لزم الأمر.. وتذكر أنه سيكون السهم المسموم الأخير!

شرب يونس من ينبوع عذب، وسمّى باسم الله.. تذكر الخاتم عفواً فوضعه في أصبعه بلا شعورٍ منه تقريباً.. صعد ثانية واتجه للشجرة وتسلل نحوها.. أسرع بإحداث بضعة شقوق بسكينه الحاد في جذعها، واعتلى حجراً يجمع ما تخلف عن الطائر من عصارةٍ جافةٍ.. شرع يجمع السائل الأحمر الذي يسيل من الشقوق في وعاء خزفيٍ أحضره الحضرمي.. قدّر بالنظر ما تجمع لديه.. يكفي المقدار لأكثر من أسبوع هو مدّة العلاج.. لن يطمع في المزيد فيضيعَ كلّ شيءٍ!

بينما يتبادل يونس والشيخ صالح نظرات السعادة والظفر، ولسان حالهما يقول: «لقد نلنا ما نريد دونما صراعٍ أو قتالٍ أو إراقة قطرة دمٍ سوى دماءِ الشجرة!»، إذا بالوحش الطائر يخرج من جوف الجبل، ويرى الوعاء الثمين في يد يونس، فيُجنّ وينقضّ على رأس يونس بمخالبه.. تفاداه بحركةٍ سريعةٍ، وانحنى بسرعةٍ ووضع الوعاء الخزفيّ على الأرض كي يتمكن من مقاتلة الطائر البشع!

هجم عليه الطائر من جديدٍ فضربه يونس بسيفه ضربة غير مؤثرة.. وشعر بقوةٍ وثباتٍ، فاندفع يضرب والطائر يناوره.. أدرك يونس أنه يمكر للوصول لوعاء الدم، فاستمات في الدفاع عنه.

كان الشيخ الحضرمي في هذه الأثناء يشدّ وتر قوسه، ويترقب اللحظة الحاسمة لإطلاق سهمه القاتل، ويخشى أن يخطئ الطائرَ هذه المرّة أيضاً، أو لا قدر الله يصيب يونس بالخطأ!

دار صراعٌ ضارٍ بين يونس والوحش الثائر على وعاء الدم.. كان

الطائر يشتعل حنقاً على الشاب؛ لأنه تجرأ على الاقتراب من الشجرة بل وأخذ دمها!

كان يونس يخاف أن يقذف التنين بالنار من فمه إذا أحسّ بالخطر الشديد أو أوشك على الهلاك كما ذكر الكتاب القديم.. قرر أن يجازف بالفرار بالوعاء.. التقطه في طرفة عينٍ وأخذ يركض شاعراً بقوة غير طبيعية، والطائر يطارده.. وفي لحظةٍ هوى الطائر على الأرض والسهم يرشق في طوقه الأبيض!

أسرع يونس إلى الشيخ صالح يصافحه ويعانقه وألقى نظرة على الطائر فوجده مستلقياً على جنبه، تختلج أرجله المشدودة، ويرفّ جناحاه كأنه ذبيحٌ يحتضر، فاطمأن قلبه!

***

شرع يونس والشيخ الحضرمي ينزلان والفرحة تغمرهما وقد أنجزا المهمّة ونالا المراد.. فكر يونس بأن مدّة علاج نسمات الأريج ربما تتجاوز الأسبوع، وبدأت الوساوس تناوشه، وكلما ابتعد زادت أفكاره المستريبة إلحاحاً.. الفرصة لا تزال متاحة للحصول على المزيد من دم الشجرة الشافي، وإذا ضيّعها فقد لا تتكرر.. صارح رفيقه برغبته في الصعود مرّة أخرى من أجل المزيد من الدواء لا طمعاً ولكن لطمأنة نفسه فقط.. قال الشيخ:

- لا أنصحك بالعودة.. قد تكون جرعة العقاقير غير كافية لإحداث السمّيّة القاتلة، ويقتصر مفعولها على إصابة الطائر التنيني بتشنجاتٍ مؤقتةٍ، يجوز أن يحتملها جسمُه القويّ وسرعان ما يستردّ عنفوانه ويعود لطبيعته!

بلغا منحدراً، يصعب الهبوط فيه.. ثبت الشيخ خطافاً بحبلٍ

في حرف المنحدر، تدلّى بواسطته يونس، وهبط بسلام.. حان دور الشيخ.. بدأ ينزل وفي منتصف المسافة انهار شفا الجرف، وأفلت الخطاف، وسقط الرجل على الأرض الصخرية!

مال عليه يونس فزعاً.. كان الشيخ يتأوّه من الوجع، ثمّ غاب عن الوعي.. كان الدم يسيل من رأسه.. أسرع يونس بالضغط على موضع النزيف بشاله.. وجد الشيخ ينزف من ذراعه أيضاً.. فكر بأن ارتطام الرأس بشيءٍ صلب قد يخلف لدى الشخص علة خطيرة كالفالج.. سمع الشيخ يذكر فائدة دم الأخوين المؤكدة في حبس النزف أياً كان موضعه، وفي أيّ عضو من أعضاء الجسم.. نظر حوله.. لم يجد أثراً لشجرة عندم واحدةً.. لم يكن هناك وقت أيضاً.. كلّ دقيقة تمرّ تهدد حياة الشيخ.. لم يتردد يونس لحظة في إنقاذ الشيخ مهما كلفه ذلك.. ولو كان دم تلك الشجرة المتفرّدة بين أشجار دم الأخوين جميعاً.. وضع يونس ذلك الدم على جروح الشيخ وهو يدعو الله ويتلو آياتٍ من القرآن الكريم.

بعد قرابة ثلاث ساعات سمع يونس أنين الشيخ.. حمد الله.. كان النزيف قد توقف تماماً منذ أكثر من ساعتين.. وها هو الرجل يفيق ويتنبه قليلاً لما يدور حوله.. أسرع يونس بإضافة قدر ملعقة من دم الشجرة إلى الماء وقلّبها، وسقاها للشيخ.. وظل يعطيه الدواء بضع مرات حتى نفد ما في الوعاء.

استعاد الشيخ وعيه كاملاً بعد يومين، وصار قادراً على القيام والسير معتمداً على عصا أحضرها له يونس.. وعندما علم بما حدث، لام يونس لأنه استهلك علاج نسمات الأريج كله، بعدما كابد الأهوال في سبيل الحصول عليه.

ربّت يونس على كتفهِ باسماً:

– فداكَ!

رجاه الشيخ صالح أن يصعد لأعلى الجبل ليأتي بكمية من العقار لنسمات الأريج قبل حلول الظلام.

مازال قريباً من حديقة التنين.. ما يمنعه أن يعاود الكرّة ؟

شرع في الصعود.. الوصول يبدو أسهلَ وأسرعَ هذه المرّة.

دنا من الحديقة.. مشى حذراً.. وقف يحملق ذاهلاً.. الشجرة الفريدة محترقة تماماً.. صارت كتلة متفحّمة كأنما احترقت في أتون.. بقية الأشجار مازالت تحترق.. والطائر التنين ملقى بمدخل المغارة، لا يعلم إن كان حياً أو ميتاً.. تحامل الطائر على نفسه ووقف مترنحاً واستجمع قوته وأطلق نفخة واهنة من لهبٍ فى اتجاه يونس.. سارع يونس بالابتعاد والنزول بأقصى ما يملك منٍ وسعٍ!

***

عاون يونس صديقه على نزول الجبل متمهلين.. وصلا للسفح واتخذا طريقهما في الوادي الأخضر.. أوصل الشيخ صالح الحضرمي حتى كهفهِ.. اطمأن أنه صار بخيرٍ، ويتعافى سريعاً.

قال له الرجل في توسلٍ:

– اذهب إلى سفينة الشيخ عسى أن تلحق بها.. لا تخشَ علىّ.. لقد شفيتُ والحمد لله.

***

مضى يونس صوبَ الساحل يحدوه الأمل في أن يجد سفينة الشيخ جرير لا تزال تنتظر.. كان قد تحدّث من قبل إلى الشيخ واعتذر عن عدم استكمال الرحلة على سفينته إلى عدن وساحل

الملبار.. سرّ عندما أخبره جريرٌ أنه سيبقى في سقطرى أسبوعاً، إلى أن تأتي بعض السفن القادمة من جزائر المالديف ومدغشقر؛ لحاجته إلى كمياتٍ أكثر من العنبر وخشب الصندل.

هاهو يكتشف أن سفينة الشيخ جرير الكولمي قد أبحرت صباح أمس بعدما انتظرت سفن العنبر مدّة أطول!

وبينما كان يونس على صخرة تطلّ على المحيط،، يتابع السفن العابرة، مستغرقاً في الفكر مهموماً، سمع صفيراً كأغاريد البلابل.. ظنّه أحد الطيور.. اقترب الصوت أكثر.. التفت يونس ليجد أمامه أحمد سنِجايا.. صاح:

- السومطري!

أخبره ان سفينة الشيخ برهان البغدادي عادت إلى سقطرى بعد وقتٍ قصيرٍ من إبحارها.. أعطبت عاصفة شديدة قلعاً كبيراً من قلوعها المربعة الشكل، المصنوعة من حصر النارجيل، كما حدث بها ثقبٌ لاصطدامها بالشعاب المرجانية المتوارية تحت الماء.. أخفقت محاولات إصلاحها في البحر برغم ما تحمل من مستلزمات لحالات الطوارئ كالحبال والبكرات والقار لمعالجة الثقوب.. كانت سقطرى أقرب إليها من أيّ مرسى آخر.. آثر ربّانها العودة بها إليها لإصلاحها ضماناً للسلامة.. قال أحمد:

- كنا نريد أن نسافر معاً واستجاب الله لنا!

قال يونس:

- سبحان الله!

وحكى له ما كان من أمر الرحلة العجيبة في الجبل وطائر التنين أو العنقاء الزاحفة.. وإصابة الشيخ الحضرمي.. انزعج

أحمد واصطحب يونس لزيارته.

اطمأن أحمد على صديقه الشيخ، وسار ويونس إلى المرسى.. تحدّث أحمد مع وكيل التاجر والربّان بشأن يونس.. وعاد يقول له:

- اصعد على بركة الله!

ومضت السفينة بتجارة الشيخ برهان البغدادي صوب ظفار بعمان.

٦

وصل يونس إلى ظفار المطلّة على بحر العرب منذ خمس ليالٍ.. أرض اللبان والبخور والسحر والجمال.

استغرقت الرحلة نيفاً وعشرين يوماً.. مرّت بسلام.. كانت الرياح الموسمية مواتية طوال السفر.. ساءت أحوال الجوّ بعض الشيء.. فاجأتهم أثناء الرحلة عواصف رعدية ممطرة، فأعاقت قليلاً من سير السفينة.. فكّر يونس وعجب من تصاريف القدر.. خرج مع تجارة جرير الكَوْلَي فإذا به يواصل على سفينة برهان البغدادي.. أحضر الدواء لنسمات الأريج، فأنفده في علاج الشيخ صالح الحضرمي!

يتذكر الجبل والطائر التنيني.. لا يشعر بأدنى قدرٍ من الندم.. لم تعكّر صفو نفسه ذرة حسرةٍ على نفاد عقار دم الأخوين الفريد في مداواة الشيخ، واحتراق الشجرة.

كانت السفينة قادمة لجلب البخور واللبان الظفاري الممتاز، وبخاصةٍ أفضل أنواعه: «البخور الفضي»، الذي يتجمع في قطرات لؤلؤية عند الفجر من جرح الشجرة كأنه دموعها.

ستبقى السفينة بضعة أيّام لراحة الملاحين، والتزود بالمؤن التي تكفيها شهراً، وبيع حمولتها من سلع تماثل ما على سفينة الكولمي.

بدأ يونس جولة خلال الأيام الماضية بصحبة أحمد سنجايا،

الذي عمد إلى الترفيه عنه والتخفيف من حزنه.. لم تقعْ عيناه أثناء تجواله إلاّ على كلّ جمالٍ أخّاذٍ أو حسنٍ خلاّبٍ.. جبال مكسوة بأردية مخملية خضراء من النباتات.. أشجارٍ جوز الهند أو النارجيل والموز.. الشلالات.. عيون الماء والكهوف.. آثار الأقدمين من أسوارٍ وأعمدةٍ منحوتةٍ.. قبر النبي أيوب والنبي عمران عليهما السلام.

أوّل زيارة ليونس لظفار.. السومطري جاءها العديد من المرات.. يعرفها جيداً.. يطوفان اليوم بالسوق.. رحّب التجار بهما لوثيق معرفتهم بأحمد.. بدا السومطري كأنه يتفقد السوق، ويبحث عن شيءٍ لا يفصح عنه.. أخيراً سأل أحد الباعة.. دلّه عليه.. تهلل وجهه.. وقال:

– حمداً لله.. الشيخ راشد السمبوكي العطّار لم يزلْ حيّاً يرزق.. أطال الله عمره!

سار السومطري نحو أطراف السوق.. كان السومطري يعرفه أكثر من سواه من تجار ظفار.. الشيخ راشد رجلٌ من المُعَمّرِينَ.. يشتهر منذ عهد صباه باسم السمبوكي نسبة إلى «السمبوك»؛ وهو مركب أصغر حجماً من أنواع المراكب الأخرى التي تجري في البحار بتجارة الكارم.. يستخدم كثيراً في استخراج اللؤلؤ وصيد السمك.. يقترب راشد من تمام القرن من عمره المديد.. يحبّ العمل ويتمنى أن يظلّ يعمل حتى آخر نفسٍ من حياته.. يحرص أحمد على مجالسته بعض الوقت كلما أتى إلى ظفار.. يطمئن ويفرح حين يراه في صحةٍ طيبةٍ.. أوعز ليونس بالحديث عن مرض نسمات الأريج؛ فربّما كان له رأيٌ مفيدٌ.

أسرع إلى بائع لبانٍ تحت شجرةِ «تمر هندي» عجوزٍ، يفترش بساطاً يعرض عليه بضاعته القليلة من اللبان والبخورٍ والتوابل والسواك.

بعد التحية والسلام والسؤال عن الأحوال جلس الضيفان.. ارتاح يونس للشيخ راشد من الوهلة الأولى.. سأله الشيخ عن عمله.. أخبره أنه يؤدي أيّ عمل يطلب منه.. قال له:

– كنت مثلك عندما كنت شاباً.. هذا شأن الشباب.. هم دوماً في حيرة.. يريدون أن يفعلوا كلّ شيءٍ.. يؤرقهم الطموح ويحلمون بأشياء كثيرةٍ!

وحكى فقال إنه انتهى به المطاف عطّاراً وبائعاً للبان.. وكان قد بدأ في صباه بصناعة مراكب السمبوك، وعمل غوّاصاً على مراكب صيد اللؤلؤ، كما عمل فيها «نهاماً»؛ ليمارس هواية الغناء وقال:

– النهام هو مغني السفينة وشاديها.. دورُه مهمٌ جداً؛ فهو يدخل البهجة في نفوس زملائه، ويجدّد فيهم النشاط والحماسة، ويبثّ في قلوبهم السكينة والاطمئنان بما ينشد من الأغنيات الدينية، ومديح الرسول عليه الصلاة والسلام.

يبتسم:

– كلّ من سمعني قال إن شدوي عذبٌ.. فأقنعت نفسي بذلك.. ويوماً مَرِضَ النهام فكنت بديله !

سأله يونس:

– لِمَ تركت العمل في مجال البحر واتجهت إلى العطارة؟

عبرت ملامح وجهه المليء بالتجاعيد عن الحزن وقال:

– هلا نظرت إلى هذه؟

لم يلحظ يونس قبل تلك اللحظة ساقه المفقودة والعكاز الموضوع بجواره.. شعر بالحرج ولاذ بالصمت.

قال راشد:

- يقولون دائماً إنّ الغواصين أعمارهم قصيرة.. يمرضون.. وقد يغرقون أو يتوقف تنفسهم ويختنقون تحت الماء، ويتعرّضون للأخطار من قناديل البحر والقروش وسمكة اللخمة السامة.. لكن الحياة تستمرّ والغوص باقٍ!

وحدّثه عن صديقٍ له تعرض لإصابةٍ خطيرةٍ من سمكةٍ اللخمة.. شكلها يشبه قرصاً كبيراً ينتهي بذيلٍ طويلٍ كالسوط يحمل شوكة مسننة سامة.. تدفن نفسها في رمالٍ القاعٍ فلا تظهر إلاّ عيناها.. فإذا ما اقترب إنسانٌ منها ضربته بشوكتها وسببت له آلاماً وتورّماً شديدين، وغالباً ما تكون الإصابة في القدم كما حدث لصديقه الذي كاد يقضي نحبه.

وقال وهو يبتسم في دهشةٍ:

- جاسم.. أحد أحفادي.. استهوته مهنة الغوص مثلي على خطورتها. لم يتعظ من ساقي التي التهمتها سمكة قرش، وأنجاني الله منها بمعجزةٍ وعمّرت طويلاً.. لم أعترض عليه أو أنصحه بشيءٍ غير أن يحترس ويترك أمره لله لإيماني بقضائه تعالت وجلّت قدرته.

حدثه يونس عن الشيخ أبي الثناء الكوثري.. قال راشد إنه عرفه في زمن الشباب.. كان يعمل بتجارة الكارم، وكان يتجر باللؤلؤ ضمن سلعه.. كان يطوف البحر بمركبه.. يشتري اللآلئ من مراكب الصيد ويبيعها لتجارِ الهند.. وكان مثالاً للتاجر الصدوق القنوع.

قال يونس:

– حدثني الشيخ أبو الثناء عن عقارٍ اسمه عشبة الشفاء.. أحتاج إليه لعلاج إنسانة عزيزة على قلبي.

وحدّثه عن مرض خطيبته، وسلم له الرقاع، وأخبره أن أبا الثناء سبق أن اطلع عليها.. طفق يطالعها بعينين كَلّ بصرهما ثم ردّها له.. وقال:

– للشيخ الكوثري أحياناً كلماتٌ مبهمة.. لكنه لا يقول كذباً يا يونس.. الوصفات كلها لعقاقير برّية.. أعني أرضية.. إما نباتية أو ذات أصلٍ معدني أو حيواني.. ليس يدخل في تحضيرها أيّ عقارٍ بحريّ أو مائيّ.

قال يونس:

– هل يعني ذلك شيئاً؟

أجاب الشيخ راشد العطّار:

– نعم.. عشبة الشفاء التي نصح بها الكوثري لابدّ أن تكون عشبة بحرية!

وشرح له الشيخ راشد أن قيعان البحار صورة مطابقة لليابسة لكن تغطيها المياه.. فيها جبالٌ وكهوفٌ وعيونٌ عذبة متدفقة، وبها نباتاتٌ وزهورٌ خاصة بها.. حتى الحيواناتُ تتشابه مع اختلاف طبيعة تراكيبها الداخليّة والخارجيّة لتلائم المكان الذي تعيش فيه.

تعجّب يونس لأن هذه الفكرة لم تمرّ بباله مع علمه بكثرة ما يأتي به البحر من خيرات، بما في ذلك أصناف التجارة التي تحملها سفن الكارم؛ كالعنبر من حيتان العنبر.. والمرجان والإسفَنج.. والعقاقير الطبية.

حدّثه الشيخ راشد عن أعشاب تنبت على صخور قاع البحر وشعاب المرجان في مناطقَ لا تبعد كثيرا من شواطئ ظفار.. نقل فوائدها عن أبي ريحان عليه رحمة الله.. أحد شيوخ العطارين ومشاهيرهم.

سأله يونس عن أثرها العلاجي فقال:

– أعتقد أن خطيبتك أصابها مرضٌ بالنفس كالقلق مثلاً أو الشعور بالاكتئاب، أفقدتها الشهيّة للطعام؛ فضعف جسمها تبعاً لذلك وعراها الهزال.. العشب الأرجواني خيرُ دواءٍ لها.. يفيد في حالتها.. هذا العشب البحري يحسّن من نفسيتها ويهدئها، ويفتح شهيتها ويقويها فتبرأ شيئاً فشيئاً وتعود لسابق عهدها!

قال يونس:

– هل يباع هذا العشب هنا أو في مكان آخر؟

أجاب الشيخ:

– مع الأسف لا.. الناس إلى الآن تجهل منافعه الجمّة ويركّزون على أعشاب البرّ، وسيأتي يومٌ يقدّرون فيه ما لأعشاب البحار من قيمةٍ غاليةٍ!

أحسّ أحمد أن يونس مشتّت الفكر، فقال موجهاً حديثه للشيخ:

– هل من وسيلةٍ للحصول على كميةٍ منه تكفي لعلاج المريضة؟

قال الشيخ:

– أقول نقلاً عن أبي ريحان شيخ العطّارين: ينمو هذا العشب على ظهور سلاحف الماء والمحارات الكبيرة والصخور.. وأحسنه وأعلاه فائدة النابتُ فوق السلاحف!

وجم يونس وقد تملكته الحيرة.. ابتسم الشيخ وامتدت يده تربت على ذراع يونس:

– هل تحسب أن هذا الأمر لا يعنيني؟ سأجد حلاً إن شاء الله.. سأتحدث مع حفيدي العزيز جاسم.. وسنلتقي في الليل لأسْمِعَك غنائي!

سأله عن مكان اللقاء:

– على الشاطئ.. بجوار مرسى السفن.. أذهب إلى هناك كثيراً.. أستلهم البحر وأمواجه وسفنه.. أستعيد ذكريات الماضي.. لا تنطلق وتنجلي حنجرتي إلاّ بالبحر!

فرح يونس ووعد الشيخ أن سيحضر ربابته معه؛ لأنه مثله يهوى الموسيقى والغناء.

ودعهما الشيخ راشد وحدّق إلى يونس:

– سأساعدك بما يشاء ربّك ولكن تذكّر دائماً مقولة الإمام الشافعي :

ماحكّ جلدك مثل ظفرِكْ
فتولّ أنت جميع أمرِكْ
وإذا قصدتَ لحاجةٍ
فاقصدْ لمعترفٍ بقدرِك

***

تلاقوا في الموعد عند مرسى السفن.. أوصل أحمد صديقه للقاء الشيخ وانصرف لعملٍ مع تاجرين من مواطنيه.

كانت الليلة مقمرة، والطبيعة رائعة.. جاء الشيخ راشد يتوكأ على عكّازه، ومعه شابٌ وسيمٌ؛ هو حفيده جاسم الذي داعب جدّه:

- جـدّي يريد عـروسـاً، ولذلك يـرفض أن يسـاعـده أحـدٌ في المشي.. أدام الله عليه العافية.

ضحك جدّهُ:

- العروس من أجلك أنت يا جاسم!

وتوجه بكلامه ليونس:

- سيـخرج جاسم في بدء موسم «الغوص الكبيـر» في غضـون يومين أو ثلاثة.. وسيـرجع بعـد شهـرين أو أكـثر حـسب المحصـول ليزفّ إلى عروسه.

قال يونس:

- أطال الله بقاءك حتى ترى أولاده وأحفاده!

قال الشيخ وهو يتأمل البحر:

- كلما جلست قدّام البـحـر أحسستُ بعودة راشد السـمبـوكي وأيام الغـوص والصـيـد والتـغـني بمدح النبي عليـه الصـلاة وأزكى السلام!

وأخذ يرنّم:

- بديت وأثنيت بالحمد

مبدأ صلاة النبي بالفوز والحمد

صلّوا على من سجد واثنوا له بالحمد

وعندمـا انتـهى الشـيخ من إنشـاد القـصـيـدة هتف يونس من أعماق قلبه وقد أشجته المعاني:

- الله.. الله.. فتح الله عليك!

فوجئ يونس بالشيخ يطلب منه مصاحبته في الغناء على نغم الربابة.. أحسّ يونس أن له غـرضـاً مـا يرمي إليـه.. ردّد مـقـاطع

اللحن خلفه، وحفظ القصيدة كاملة من أوّل مرّة، وشدا بها منفرداً على صوت الربابة، فكانت أروع ماتكون، واستملحها الشيخ والحفيد جاسم.

قال يونس بذكاءٍ:

- هل نجحت في الامتحان؟

ابتسم جاسم:

- هو بالفعلِ اختبارٌ وقد اجتزته بنجاحٍ كبيرٍ!

قال الشيخ:

- طبعاً تجيد السباحة.. هل جرّبت الغوص؟

أجاب يونس:

- لم تضعني الظروف في موقفٍ يتطلب الغوص مع أنها جعلتني أتقن مهارات القتال لحماية قوافل التجارة وسفنها.

قال جاسم:

- قد تضطرك الظروف لفعل ذلك.. وعلى أية حالٍ الأمر يحتاج إلى الجرأة أولاً والمهارة ثانياً وقدرٍ من الجَلَدِ وقوّة الاحتمال!

قال يونس:

- تتحدّثان إليّ كأنني سأعمل غوّاصاً!

قال الشيخ:

- إذا احتاج الأمر.. لكني اتفقت مع جاسم أن يعاونك قدر الاستطاعة.. وستبدأ بالعمل نهاماً.. تشدو لتشجع من يعملون على المجاديف والغواصين.. وفي الوقت نفسه تجلس مع «السيوب» الذين يخرجون الغاصة إلى سطح الماء بعد إتمام مهماتهم؛ لتكتسب الخبرة.

أخبره جاسم أنه اتفق مع «النواخذة» ـ وهو قبطان المركب ـ على اصطحابه، وعليه الاستعداد للسفر منذ هذه اللحظة، بحفظ بعض الأناشيد والقصائد، خاصة التواشيح الدينية والمدائح النبويّة، والتدرّب على ألحانها.

وقال له الشيخ راشد:

– أنا من سيتولى تحفيظك وتدريبك حتى إذا حان ميعاد بدء الموسم أو «الركبة» تكون جاهزاً بإذن الله.

بان على وجه يونس القلق.. ليس خوفاً من العمل للمرّة الأولى على مركب لصيد اللؤلؤ.. ما يشغله هو مفارقة أحمد سِنجايا.. سيعتذر لهً وسيقبل اعتذاره لأنه إنسان شهمٌ متسامحٌ، وسيرّحب أحمد بذهابه مادام سيمضي للبحث عن دواءٍ لنسمات الأريج.

استشفّ الشيخ راشد ما يدور بخاطره فقال له:

– أرى أنه لا فرق بالنسبة إليك بين العمل على سفينة لاستخراج اللؤلؤ وأخرى تجارية.. سبق لك أن خرجت مع سفن الكارم بضع مرات.. فلتجربْ شيئاً جديداً.. أنت شاب والشباب مغرمٌ بالتجارب الجديدة والمغامرات!

شرع الشيخ راشد يحفّظ تلميذه الشاب القصائد.. كان سعيداً لنجابته وسرعة حفظه.. مضى الزمن بهم سريعاً..غادره الشيخ راشد وحفيده قرب وقت السحر.. وظلّ يونس يعزف الربابة، ويستعيد الكلمات واللحون كي يتأكد من حفظها.

***

وبينما هو على هذه الحال سمع صوتاً ينادي عليه ويستجير به:

- أنقذني يا يونس.. النجدةَ.. النجدة!!

تكرّر النداء وكان آتياً من مسافةٍ قريبةٍ، خمّن يونس أنه آتٍ من بين صخور الشاطئ!

أخذ يمعن النظر في هذه الجهة.. وقعت عينه في النهاية على المستغيثة.. وجه فتاة يلوح في نور القمر.. استطاع أن يرى شعرها الطويل الذي يشبه خيوط من ذهبٍ تتماوج على الماء!

قالت له الفتاة بصوتٍ يقطعه الأنين:

- أسرع يا يونس.. بالله عليك!!

قفز يونس في الماء وسبح في اتجاه الصخور.. ومع اقترابه يتضّح له الوجه شيئاً فشيئاً.. ما أشبهها بنسمات الأريج!

رنت إليه بعينين بزرقة البحر، ورجته أن يخلّصها!

سأل يونس نفسه: «ما جاء بهذه الحوراء إلى البحر قبيل الفجر؟!».

ظنّ أن إحدى قدميها أو كلتيهما انحشرتا بين صخرتين!

اتجه يونس ليفلت الجزء المحشور من نصفها الأسفل.. يالله!!

الفتاة بلا رجلين.. لها ذيلٌ مغطى بقشورٍ فضيةٍ كسمكةٍ.. أجلْ.. نصفها السفلي سمكة.. تكاد تكون والصورة التي رسمها لعروس البحر على الحائط توأمين.. أتكون حقاً...؟

- أنا عروس من عرائس البحر.. واسمي نُجيمات!

تحرّرت عروس البحر الحسناء من أسْر الصخرتين.. قالت:

- سهرتُ أصغي إليك ومن معك.. كنتَ السبب في احتجاز ذيلي بين الصخور.. ألا تعلم أن عرائس البحر يأتين على صوت آلات الموسيقى ذات الأوتار؟!

ونظرت إلى الربابة بيده:

– ألهاني صوتك الرخيم وعزفك على هذه الآلة الموسيقية الساحرة.. أنا أعرف القيثارة.. فما تكون تلك التي بين يديك؟

أجابها:

– الربابة!

طلبتها منه، فناولها إياها.. أمسكت القوس وراحت تداعب الأوتار.. فرحت وطربت للصوت الحنون.

قال يونس:

– لا أكاد أصدق أن أمنية عمري صارت حقيقة.. أم أنا في حلم؟!

ابتسمت فتلألأ وجهها:

– حقيقة.. كالحلم!

وبينما تردّ إليه الربابة، رأت الخاتم في إصبعه.. حدقت إليه بدهشةٍ وسألته:

– من أين حصلتَ على هذا الخاتم؟

أجاب:

– هو خاتمٌ قديمٌ زهيدُ الثمن.. أهداه لي صيادُ سمكٍ رقيق الحال من مصر!

وحكى لها قصته مع أبي أيوب وإنقاذه ابنه الوحيد من الغرق في النيل.. وإهداء الصياد إليه هذا الخاتم الذي عثر عليه جده في النيل.. أصغت له.. قالت:

– أرني ذلك الخاتم!

خلعه من إصبعه.. قلبته بين أصابعها وصاحت:

- إنه هو.. خاتم جدتي المفقود من قديم الأزمان.. هو ذا اسمها منقوش عليه مع بعض الطلاسم والتعاويذ السحرية.. هذا الخاتم لا يقدر بثمن.. إنه يهب صاحبه الشجاعة والقوّة.. وأشياء أخرى.. ولكن كيف وصل لجدّ ذاك الصياد المصريّ!

أطرق يونس حائراً.. فكّرت قليلاً.. قالت إن الاحتمال الأقرب إلى الصحة أن أحد صيادي اللؤلؤ القدامى وجده بين محارات القاع في هذا البحر، وباعه لتاجرٍ يتنقل بتجارته بين البلاد والموانئ.. سقط منه في نهر النيل وابتلعته سمكة.. اصطادها جدّ الصياد المصري ووجد في أحشائها الخاتم!

وضعتْ «نجيمات» الخاتم في إصبعها.. وفي غمضة عينٍ تحوّل إلى خاتمٍ ذهبي بفصّ من الزبرجد الأخضر الشفاف يلمع في نور البدر الغامر.

أخذت يونس الدهشة.. يبدو أن هناك لغزاً وراء ذلك الخاتم العجيب!

أخبرته أن جدّتها سحرته، حتى إذا وقع بيد أي إنسانٍ غريب يصير نحاساً كما حدث، لكنه يظلّ محتفظاً ببعض خواصه السحرية!

ابتسمت وقالت:

-. يبدو أن جدتي الأريبة كانت تحسّ باحتمال فقده.. فإذا ما وجده إنسانٌ استحال ذهبه بين يديه نحاساً فيرميه حيث عثر عليه؛ وبذلك يعود لجدّتي من جديدٍ!

سأل يونس:

- من فضلكِ حدثيني عمّا لا أعرف من قدراته ؟

أجابت:

- نعم.. بكلّ سرور.. إن هذا الخاتم...

سكتت عروس البحر، وارتفعت أصواتٌ صاخبة تنادي من بين الصخور: نجيمات.. نجيمات.. أين أنت!

قالت عروس البحر:

- أخواتي قلقن عليّ فجئن يبحثن عني!

اختفت نجيمات بين الأمواج.. وأخذ يونس يردد كالذاهل:

- نجيمات.. الخاتم!!

٧

كأنه يومُ العيد.. حضر أميرُ البلاد وأعلن بداية موسم الغوص الكبير.. خرجت القبائل إلى البحر لوداع الأهل والأحبّة الذاهبين من أجل الرزق داعين لهم بالعودة سالمين.. يزدحم البحر بمراكب صيد اللؤلؤ من مختلف النوعيات: الجلبوت.. السمبوك.. البقارة.. البتيل.. ترفع كلّ سفينةٍ علمَ القبيلة التابعة لها.. تغادر الميناء على دقّات الطبول والدفوف من الرجال والنساء، وأهازيج الفتية والصبايا.

سيعمل يونس على السفينة «فتح الخير» لصاحبها وربانها النواخذة سلمان.. لركوب السفينة مراسمُ وطقوسٌ تبدأ منذ اللحظة الأولى.. خلع يونس نعليه اقتداء بجاسم وسائر العاملين.. يرون في سفن الصيد أماكن ذات احترام وقدسيّة؛ فمنها رزقهم ومعاشهم، وهم جميعاً عليها ولا شيءَ غيرَ البحر والسماء، يسيرون بين يديّ الإله وفي عنايته.

شرع البحارة يجدّفون، يزجي حماستهم يونسُ بأناشيده.. وسرعان ما تحوّلوا جميعاً إلى الغناء الجماعي.

سارت المركب في طريقها لمصايد اللؤلؤ أو «الهيرات» المعروفة للنواخذ.. على متنها أربعة غواصين، ومثلهم من «السيوب» وهم من يبقون بالسفينة لسحب الغاصة من الماء بعد انتهائهم من جمع

المحار، و«المجدمي» الذي يتولى الإشراف على مقدمة السفينة، وينوب عن الربان في بعض الأمور، و«السكوني» العامل على دفّة السفينة، بالإضافة إلى أربعة من المجدفين، وخمسة من الـ«تبابين»؛ وهم صغار البحارة ؛ للتدريب واكتساب المهارات، وخدمة الأفراد الآخرين، وصيد السمك، وإعداد الطعام والشراب للباقين، والقيام ببعض الأعمال البسيطة كفتح المحار بالمفلقة للبحث عن اللؤلؤ.. يرأس الجميع النواخذة أو ربّان السفينة.

كان يونس يغني لزملائه أثناء العمل وفي فترات الاستراحة وقبل الخلود للنوم.. مضى الوقت سُراعاً.. توقفت المجاديف.. أدرك يونس أن أعمال الغوص ستبدأ، وصاح النواخذة محذراً: أن لا مكان للكسالى أو المتمارضين على السفينة.. وهدد بإلقاء أيّ متخاذلٍ أو متهاونٍ طعاماً لأسماك البحر الجائعة!

شعر يونس بالقلق من ذاك الربان.. كان ذا شخصية عنيفة متغطرسة تتجاوز حدود الجدّية في العمل إلى التسلط والتحكم.. أخبره جاسم أن ذاك الربان هو مالكُ السفينة ومموّل الرحلة.. وقال يطمئنه:

– هذه المهنة تتطلب كثيراً من الحزم واليقظة؛ لأن النواخذة مسؤولٌ عن كلّ شيءٍ على سفينته: أرواح العاملين معه، والحفاظ على سلامة المركب، وحماية حصيلة اللؤلؤ من السرقة.. وستعتاد على هذه المعيشة وتحبّها.

بدأ العمل.. تأهب الغواصون أو الغاصة لنزول البحر.. أكلوا التمر وشربوا القرفة.. خلعوا ثيابهم البيضاء والزرقاء حتى لا يلفتوا إليهم أسماك القرش، وارتدوا ملابس الغوص السوداء.

نظر يونس لجاسم وابتسم ورفع قبضته مشجعاً.. لبس جاسم قفازين من جلدٍ خاص لوقاية أصابعه، ووضع سدادتين في أذنيه، والمشبك المسمى بالفطام على أنفه حتى لا يدخلها الماء.. تأكد من اكتمال أدوات الغوص: السكين ليدافع بها عن نفسه ضد الأسماك.. الزنبيل وهو حبل ينتهي بثقلٍ من الحجر أو الرصاص يساعده على سرعة الوصول إلى القاع، والديين وهو كيس لجمع المحار يعلقه الغواص في رقبته.. وحبل آخر طويل هو «اليدا» نهايته على السفينة، وهو بمثابة حبل النجاة، يشدّه الغوّاص فيسرع «السيب» بإخراجه من الماء.

توالى نزول الغاصة بين الأمواج والغوص واستخراج المحار، وشدّ الحبال كإشارة إلى السيوب لسحبهم من الماء.. كلّ غطسة يقوم بها أحد الغواصين تسمى «تبة» وتستغرق ثواني قليلة.. والنواخذة أو نائبه «المجدمي» يراقب سير العمل بكلّ دقة، وعملية فتح الأصداف للبحث عن اللآلئ وتصنيفها حسب الأحجام والجودة.. تواصل العمل بهمةٍ وحماسٍ متقدٍ على إنشاد يونس وغنائه على الربابة، تقطعه نوباتُ راحةٍ بين كلّ عددٍ من «التبات» لالتقاط الأنفاس واستعادة النشاط.

توقف العمل وقام الجميع لصلاة الظهر.. عادوا للغوص وانتهى يوم العمل الشاق قبيل العصر.. بعد صلاة المغرب تناول كلّ فردٍ من طاقم المركب وجبة مشبعة من السمك والأرز والتمر.. في المساء خلد الجميع للنوم استعداداً لنهارٍ جديدٍ عدا يونس وجاسم.. سهرا على ظهر المركب يتحاوران.

قال يونس:

– هل من طريقةٍ للحصول على العشب الأرجواني؟

قال جاسم:

– كم أرغب في مساعدتك لكن النواخذة سلمان يراقب الغاصة جيداً ولو علم بغوصي من أجل العشب لعاقبني بالضرب أو التجويع أو بالطرد من المركب!

دهش يونس وقال:

– أنا لا أريد لك سوءاً وسيمنحني الله الفرصة لأغوص وأحضر العشب الشافي بنفسي.

قال جاسم:

– اصطبر يا أخي يونس ولا تكنْ عجولاً فتعرضَ نفسك للهلاك.. البحر مليءٌ بالعشب وتلقي أمواجه على الشواطئ بالكثير منها، ولكن العشب المطلوب ينمو على ظهور السلاحف ويحتاج بحثاً طويلاً.. عسى أن تواتيني الظروف فأصادفه ذاتَ مرّة.

ظهر النواخذة سلمان، وحدق إليهما في ارتياب وصاح:

– ما لكما ساهرين.. اذهبا للنوم لتصحوّا مبكريْنِ.

همس جاسم ليونس وهما ينصرفان:

– لا يفكّر هذا الرجل إلا في جني المكاسب ولو ضحّى بحياة الغواصين!

***

مرّ أسبوعان والعمل يمضي رتيباً.. لم تقعْ حوادث تعكّر الصفو غير حادثةٍ على قدر ما فيها من خطورة لا تخلو من طرافة.. فقد أصاب أحدَ السيوب سهوٌ، فغفل عن حبل الغواص،

الذي أخذ يشدّه ولا مجيب.. انتبه يونس فجرى لنجدة الغواص الذي كاد يختنق، ونجح في انتشاله من البحر وإنقاذه.

مع بداية الأسبوع الثالث أصيب جاسم بحمى ووجع شديدٍ في مفاصله أعجزه عن الغوص.. عامله النواخذة بفظاظة وقسوة، ولما اشتدّ بجاسم المرض، سمعه يقول لنائبه:

- يبدو أنه قد شارف على الموت ولن يأتي عليه الصباح.. سيمسي الليلة طعاماً للسمك!

قال المجدمي:

- جاسم من أمهر الغاصة وأشجعهم.. ادعُ له بالشفاء!

قال سلمان في حدة:

- وماذا إن لم يبرأ من مرضه؟.. أليست قروش البحر أولى به!

فزع يونس وتضرّع إلى الله أن يشفيه سريعاً ويرجع سليماً معافى إلى أهله وخلاّنه.. فكر في خطة تجعل الربان ينسى أمره بعض الوقت.. سلمان رجل جشعٌ لا يفكر إلاّ في مصلحته.. لا يوجد إلاّ حلّ واحدٌ !

أسرع للربان وقال له:

- أريد أن أحلّ محلّ جاسم حتى يشفيه الله!

تعجّب وقال:

- جاسم غوّاصٌ ماهرٌ وأعلم أنّ لا سابق خبرةٍ لك بالغوص!

قال يونس:

- لقد اكتسبت معرفة جيدة باستخراج اللؤلؤ من قاع البحر وكلّ حرفةٍ تكتسب بالممارسة والتجربة فلم يولد احدٌ غوّاصاً.

صاح سلمان:

– لا مانع عندي.. المهم الفائدة.. وإذا فشلت سيكون مصيرك البحر مع صديقك في آنٍ واحدٍ!

***

غاص يونس أول مرّة ونجح.. جمع محصولاً وفيراً من المحار أدهش زملاءه.. وتوالت غوصاته ونجاحاته.. لم يركز إلاّ علي جني محارات اللؤلؤ، ولم يشغل باله بغيرها.. كانت حياة جاسم متوقفة على نجاحه، فاجتهد وحاول إرضاء شراهة النواخذة للربح.

وخدمته الظروف.. أسفرتْ محارة استخرجها عن لؤلؤةٍ كبيرةِ الحجم،كاملة الاستدارة، بيضاء مشربة بحمرة.. كانت أكبر وأثمن لؤلؤة حملتها سفينته.. تحلق من حولها الملاحون وأخذوا يحملقون ويردّدون: دانة.. دانة!

فرح بها النواخذة سلمان.. وضعها وحدها في صرّة وأودعها مع بقية الصرر في صندوقٍ لا يحمل مفتاحه سواه.. وكتقليدٍ متبعٍ أطلق سلمان على اللؤلؤة: «يونس» تكريماً لمكتشفها، ووعده بمكافأةٍ قيمةٍ بعد بيعها.. ومن بعدها لانت معاملته ليونس كثيراً.. وإن أحسّ قلب يونس أنه لن ينال جائزة الربان أبداً!

كتب الله لجاسم الشفاء واستردّ عافيته شيئاً فشيئاً، ومع ذلك خشي يونس عليه من انتكاس صحته، فتناوب الغوص معه حتى اطمئن إلى شفائه التام.

شعر جاسم بالامتنان نحو يونس.. لولاه لرماه النواخذة في البحر.. من يمت فمصيره البحر.. هذا هو قانون القباطنة غير المكتوب.. كان في صراعٍ مع نفسه.. هل يترك عمله الأساسي ليبحث عن الأعشاب الأرجوانية فوق ظهور السلاحف.. لم يصادف

سلحفاة معشوشبة، وإذا لاقاها فمن أين له الوقت لإيقافها وانتزاع العشب منها؟

فكر جاسم في إحضار عشب أرجوانيّ آخر وإقناع يونس بأنه العشب الشافي.. استبعد الفكرة تماماً.. ما كان له ليخدعَ صديقه الذي افتداه بروحه.

تذكّر يونس نصيحة الشيخ راشد.. لا بدّ أن يتوكل على الله ولا يعتمد إلاّ على نفسه.. لا بدّ أن يبحث عن العشب بنفسه، ولو أدى به الأمر إلي الطرد من السفينة، ولكن بعد الحصول على العشب!

جاءته الفرصة.. طالبه سلمان بالغوص إلى جانب عمله كمغنٍ طمعاً في زيادة حصيلته من اللآلئ.

غاص مرة ورأى سلحفاة قرب سطح الماء ينبت العشب الأرجواني فوق درقتها.. حاول الإمساك بها، لكنه أحسّ بحاجته الشديدة للهواء فشدّ الحبل، وأخرجه «السيب» من البحر، ولامه النواخذة لأنه رجع صفر اليدين.

سنحت الفرصة عندما رست السفينة على شاطئ جزيرةٍ رمليةٍ صغيرةٍ.. يا فرج الله!.. شاهد عليها سلاحف البحر من مختلف الأحجام.. رأى سلحفاة تضع بيضها في حفرةٍ صنعتها في الرمال. شرع النواخذة في فرز اللؤلؤ مسروراً ووضع كلّ نوع في صرّة.. الدانة وهي الكبيرة الحجم والقيمة، تليها «الحصباة»، ثمّ الفصوص؛ أصغر الأنواع.

اعتاد المرور بتلك الجزيرة بعضُ «الطواشين» الذين يشترون اللآلئ من سفن الصيد مباشرة لبيعها في الأسواق، أو للتجار الهنود والربح منها.

جاءت سفينة فاخرة البُسط والفرش والأثاث تتدلى من مشاجبها جرار الماء العذب.. كانت لأحد الطواشين.. عرض عليه سلمان كمية من اللآلئ.. استبدل بها من التاجر بعضَ الأطعمة و لوازم السفينة.

كان رسوّهم بتلك الجزيرة بمثابة إجازةٍ قصيرةٍ يستأنفون بعدها عملهم المضني.. وفي المساء انفرد يونس بنفسه الحائرة، وربابته الحانية، يشتكي للبحر على الوتر غربته وبعده عن الأهل، واشتياقه لأمّه وعمّه.. ونسمات الأريج.. فوجئ بوجهٍ جميلٍ يطلّ من بين الموج ويبسم.. قال يونس بصوتٍ خافت:

– أنت؟!

– أنا هي.. نجيمات!

قال يونس كأنه يحدّث نفسه:

– نجيمات؟ بل نسمات الأريج!

– كم طفت بشواطئ ومواني أبحث عنك لأراك وأردَّ إليكَ الخاتم.

حدّق في الخاتم يتألق في إصبعها:

– انا لا أملكه.. لم يعدْ يشغل بالي.. لقد عاد لأصحابه أو مالكته الشرعية.

– ألم تشعر أنه منحك الشجاعة والقوّة وقت أن احتجت إليها؟

أجاب:

– لا ينكر الفضل سوى جاحدٍ.. لكنّ ربي وهبني القوّة والجسارة.. ولست أطمع في المزيد!

قالت عروسُ البحرِ:

– للخـاتم قـدراتٌ أخـرى.. هل تعلم أنك يمنـحك القـدرة بإذن الله على العيش تحت الماء وقتاً طويلاً وكأنك سمكة؟

فكّر يونس.. آه لو صحّ كلام نجيمات!

– أنت لا تصدق!

– أنا أثق فـيكِ.. سـأسـتعـيـر هـذا الخـاتم منك لسـاعـةٍ واحدةٍ لأحضر عشب البحر الأرجواني!

– ستأخذه ليبقى معك دائماً.. ولكن فيمَ تريد ذلك العشب؟

– لإنسـانة مـريضـة وهـي عـزيزة على نفسي.. قـيل إن هذا هو دواؤها الشافي!

– لن أنسى أنكَ أنقـذتني.. سـاسـأعـدكَ وآتي بذاك العـشب وأضعه بين يديك.

– للعـشب المطلوب شـرطٌ واحـدٌ: أن يأتي من درقـة سلحـفـاة بحرية!

ظهـر الفـزع على وجـه عـروس البـحـر وسكتتْ.. سـألهـا مـا دهاها.. أجابت:

– إلا السلحـفـاة يا يونس.. أهونُ عليّ إحـضـاره من على ظهـر حوتٍ أزرقَ او أخطبوطٍ أو حتى سمكة الشيطان!

اقتربت منهما سلحفاة فأغمضت نجيمات عينيها وقالت:

– أنا لا أطيق منظرهـا مع أنهـا مـخلوقـات هادئة جـمـيلة في معظمها.

وراحت تحدّق في أصابعها وابتسمت قائلة:

-ـ ولكنني أحمل منها ذكرى أليمة ترجع لأيام طفولتي!

وذكرت أنها في صغرها خرجت للتنزه عند مصبّ نهرٍ وأرادت مداعبة إحدى السلاحف فعضتها، وأطبقت فمها القويّ على يدها وكادت تقضم أصابعها.. ابتسمت وقالت:

- مع أن فكّيها بلا أسنانٍ شأنَ جميع السلاحف إلاّ أنها أوجعتني بشدّة واتضحّ أنها سلحفاة ناهشة!

قال لها:

- أعطني الخاتم.

خلعته من إصبعها.. اتجهت به صوب يونس الذي امتدّت يده لتمسك به.. لكنها سحبت يدها فجأة قائلة:

- الخاتم لن يعمل تحت الماء إلا إذا كنت معك أو بصحبتك إحدى عرائس البحر.. وسيتحول شيئاً فشيئاً بعد خروجكَ من الماء إلى نحاسٍ وزجاج.

هزّ يونس رأسه موافقاً ولبس الخاتم.. مسحت عروس البحر على رأسه وغمغمت بكلماتٍ.. نزل معها في الماء.. عجباً.. إنه يعوم في البحر بسهولةٍ تامةٍ كأنه خُلِقَ سمكة!

انطلقت نجيمات ويونس لا يبارحها.. كانت تشير إليه أن اتبعني ولا تتكلم.. توغلا في البحر، وغاصا في الأعماق حتى لم يعدْ يبصر شيئاً حتى يده!

فجأة لاحت أضواءٌ مبهرُة تنبعث من آلاف الأسماك المضيئة كأنها مشكاوات.. الآن وصل يونس لمشارفِ مدينةٍ عظيمةٍ من مملكة عرائس البحر!

***

ظلّ يونس يتبعها عبر دروب المدينة.. كانت بيوتها مشيدة من أصدافٍ كبيرة الحجم تزينها شقائق النعمان.. دخلا قصراً جميلاً من المرجان على جانب مدخله مئات المحارات التي تغلق مصارعها وتفتحها في تتابعٍ منتظمٍ كاشفة عن لآلئها الوردية، والبيضاء الصافية، والسوداء النادرة.. سبقتْ نجيمات إلى إحدى الحجرات.. غابت لحظات وعادت ليونس تخبره أن أمها الملكة تنتظره.. نجيمات أميرة إذن وأمها ملكة هذه البلاد!

رحبت الملكة به وشكرته لإنقاذه ابنتها.. طلبت إليها نجيمات أن تستدعي طبيبها الخاص لأمرٍ مهمٍ.

جاء طبيبُ القصر وقصّ عليه يونس حكاية نسمات الأريج، وحاجته إلى قدرٍ من العشب الأرجواني لعلاجها.. قال الطبيب:

– من أشارٍ بالعشب الأرجواني لا شكّ طبيبٌ خبيرٌ.. وإذا أضيف إليه مقدارٌ من زيت كبد الحوت تكون الفائدة أكيدة!

بدت على وجه يونس الحيرة.. هل جاء بالعشب من فوق درقات السلاحف ليأتي بالزيت من كبد الحوت؟!

لم يدعْه الطبيب لحيرته.. أرسل في طلبِ زجاجةٍ من الزيت، وبعثت الملكة من يأتي ليونس بالسلاحف التي تنمو الأعشاب على ظهورها ليجمع ما يشاء منها بنفسه.

ولحين حضور الطلبات، اصطحبتْ عروسُ البحرِ الملكة ضيفها لمشاهدة عروضٍ طبيعية مسلية لسمكات المهرج بألوانها الزاهية التي تجمع بين: البرتقالي والأبيض والأسود، قدّمتها بين شقائق النعمان.. وأرته الملكة صناديق جواهرها بما تحتويه من درر، وأحجارٍ كريمةٍ.. عرضت عليه ان يختار منها ما يشاء.. رفض شاكراً في أدبٍ جمٍّ..

قال إنه لا يروم شيئاً إلاّ دواءَ خطيبته نسمات الأريج.

جيء بزيت الحوت.. وبالعشب الأرجواني فوق ظهور عشرات السلاحف؛ ليأخذ منه ما يريد بيديه.. فرح يونس.. أخيراً أضحى بين يديه دواءُ نسمات!

اتخذ يونس طريق العودة بصحبة نجيمات.. سألته عاتبة:

– لِمَ لم تقلْ لي إن هذا الدواء لنسمات الأريج خطيبتك؟

أجاب يونس:

– قلت لكِ إنه لإنسانةٍ عزيزةٍ على نفسي ولم أكن كاذباً.

سقط كيس الدواء من يونس وهوى نحو القاع.. غاص وراءه وما كاد يمدّ يده ليلتقطه حتى دفعته نجيمات دفعة قوّية أبعدته عنه، وسبقته إلى التقاط الكيس.. وانطلق حيوانٌ بحريّ رهيبٌ من المكان كأنه طائرٌ مرقّط يسبح في الماء!

كانت سمكة اللخمة السامة.. لحظة واحدة فصلت بين قدمه وبين اللسعة الأليمة من شوكتها الذيلية.. لولا ظهور نجيمات في الوقت الحاسم لأصابته.

أوصلته نجيمات حتى الجزيرة.. شكرها وقال يودّعها:

– لن أنساكِ ابداً.. لقد أحضرتِ لي الدواء وأنقذتني !

ابتسمت:

– لك فضلُ السبق في إنقاذي مرّة وها قد رددّتها إليكَ.. أصبحنا خالصَيْن!

ودّعته وأوصته ألاّ يفرط في الخاتم وقالت له:

– إذا كان من حقي إهداؤه لأحدٍ سواكَ فأنا أهديه لنسمات الأريج.

اختفت نجيمات في الخضم.. تركته على الشطّ وحيداً.. أين جاسم والرفاق؟ أين السفينة!

***

لقد رحلت سفينة النواخذة سلمان.. ستبقى تفتش القيعان عن أصداف الدرّ حتى يحين «القفال»؛ موعد الإياب ونهاية الموسم.. فيرجع الجميعُ بالفرحة والرزق للأهل والأحبّة.

ربابته لم تزل على الشاطئ.. والدواء معه.. قال له الحضرمي من ضمن ما قال إن الإسراع بالعلاج يعجّل بالشفاء قبل أن يتمكن المرض من العليل ويصعب شفاؤه.. سيعود بمجرد عبور أول سفينة بهذه الجزيرة الصغيرة المهجورة.

ارتمى على الرمال.. كان مُتعبَاً.. أخذته غفوة من نعاس.. استيقظ على شخص يرفسه بقدمه! انتبه وفتح عينيه.. رأى الواقف أمامه.. كان بديناً.. أصلعَ.. ذا لحية بنية.. يعصب جبهته بشريطٍ أسود، وتحتل فراغ عينه اليسرى كرّية من البلّور الأزرق.. ليس وحده.. ثلاثة رجال كانوا معه.. سفينتهم بالشاطئ.. عليها راية سوداء يتوسطها رسم لجمجمةٍ.. إنهم... قراصنة البحر.. ربما أتوا للراحة، أو من أجل حاجة لمشربٍ أو مأكلٍ.

قال زعيمهم بغلظة شاهراً خنجراً:

- قمْ!

أخذ يونس يقوم ببطءٍ متعمداً استفزاز القرصان الذي صاح:

- بسرعة!

حاول أحدُ الرجال الثلاثة ركل يونس فأمسك بقدمه ولواها بشده ودفعه فسقط أرضاً.

أدرك الزعيم أنه حيالَ شابٍ قوي، فلوّح بخنجره مهدداً، وأمر يونس بأن يخرج ما معه طواعية.

قال له يونس:

– لا أملك درهماً.. ما معي غير كيسٍ به علاجٌ لمريضةٍ.

صاح زعيم القراصنة:

– ما رمى بك إلى هنا؟

– سفينة لصيد اللؤلؤ.

– ولماذا غادرتْ بدونك؟

أطرق يونس.. وضحك الرجل ذو العين الزجاجيّة :

– انا أقول لك.. لا بد أنك سرقت بعض اللآلئ وأخفيتها في مكانٍ ما واكتشف أمرك الربّان فعاقبك بالنفي من السفينة!

– لست بلصّ!

– أين تخفي اللؤلؤ؟

– لا أخفي شيئاً!

– فتشوه!

شرع رجلٌ منهم يفتشه على عجلٍ.. قال قرصانٌ آخر:

– لا يعقل أن ربّانه تركه ينعم بما سرق!

هزّ الزعيم رأسه موافقاً، وأمر بترك يونس. حدّق إلى الخاتم وذهبه لم يزلْ يلمع في ضوء الشمس.. أشار ليونس آمراً بخلعه، فتأبت عليه كرامته.. نزعه رجلٌ منهم من إصبعه عنوة وسلّمه لزعيمه. عثر كذلك على كيس العشب والزيت ملقى بجواره.. فتحه رئيسهم ورأى مابداخله.. ألقاه لأحد رجاله فتلقفه:

– يبدو أنه عشب ثمينٌ وزيتٌ نادر.. احتفظ به لي!

قال له يونسُ راجياً:

– العشبُ دواءٌ لمريضةٍ.. دعني أحمله لها.

أبى الرجل وقال:

– هو شيءٌ قيمٌ بالتأكيد وما اهتمامك به إلا أكبر دليلٍ على ذلك!

مضى الرجال في الجزيرة لبعض الوقت، وعندما عادوا في طريقهم للسفينة، استدار زعيمهم وطوّح بالخاتم ناحية يونس، وجلجلت ضحكاته!

التقط يونس الخاتم الذي صار نحاساً.. نظر إليه وقال متحسراً:

– ليتني فقدته وبقي العشب!

ودمعت عيناه!

٨

هبط الظلام على الجزيرة الموحشة.. اعتلى يونس صخرة وعزف على الربابة وغنّى.. كان يأمل أن تخرج له نجيمات ويخبرها بما حدث، وكيف سطا القراصنة بزعامة ذي العين الزرقاء على العشب وحرمه جهده.. عزف طويلاً وتغنى حتى أصابه الملل.. ماذا جرى؟! ألا تسمعه نجيمات؟ ليتها تأتي!

أعلنت أطيارُ الجزيرة بزوغ الصباح.. صلّى يونس ودعا ربه ألاّ يطول بقاؤه بهذا المكان.

مضى يومان ولم يظهر لنجيماتٍ أثرٌ.. في اليوم الثالث لاح لعينيه شعاعُ أملٍ.. سفينة تقبل من بعيدٍ مثل دُلفين يسبح في اليمّ ويدنو.. خلع قميصه وربطه إلى عصا وتسلق الصخرة.. راح يلوّح به.. يا ترى هل يراه أحدٌ؟ السفينة تقترب.. وتتدانى.. ها هي ترسو في النهاية على الشاطئ.

بدا أنها سفينة لصيد اللؤلؤ.. نزل النواخذة يحوطه بعض الملاحين المسلّحين بالسيوف.. أسرع إليه يونس.. طلب منه أن يضمّه لطاقم سفينته، وينزله في أقرب ميناء.. أخبر الربان أنه يجيد مهناً شتي، وكان يعمل على سمبوكٍ ظفاري لاستخراج اللؤلؤ، وأنه مستعدٌ لقبول العمل بدون أجرٍ مقابل الركوب.

ارتاب فيه ربان السفينة.. أخبره أنه لم يأتِ للجزيرة تلبية

لإشاراته وإنما لبيع اللؤلؤ. سأله ماذا جاء به إليها.. لم يردْ أن يروي له قصته مع عروس البحر، وأجابه أنه كان في نزهةٍ على الجزيرة، وغيّبه النوم، ولم تنتظرْهُ السفينة.. قال الربان وقد زاد شكّه:

– لابدّ أنك ارتكبت خطأ أو تكاسلت في العمل فعاقبك النواخذة بعقوبة التشريد وطردك للبحر ثمّ سبحت حتى هذه الجزيرة!

وابتسم في سخرية:

– هذا إن افترضنا أنك شابٌ أمينٌ ولست لصاً!

فقد يونس الأمل في السفينة مع أن اسمها «مشكاة الأمل».. استطاع عقد صداقة مع أحدِ بحارتها بعيداً عن أنظار النواخذة. أسرّ له أن السفينة من عدن، وتنتظر تاجر لآلئ هندياً من أثرياء ميناء «قاليقوط» وهواة اقتناء اللآلئ.. تعود لقاءهم كل عامٍ في مثل هذه الأوقات.. يشتري حصيلة الصيد بآلاف الروبيات، ولا يحبّ الوسطاء من الطواشين.. يقتصر تعامله على هذه السفينة دون سواها، ولا يبتاع من النواخذة إلاّ النفيس المُنتقى!

دهش يونس لعلمه أنّ كبار التجار الهنود لا يغادرون بلادهم في العموم.. أخبره البحار أن ذلك التاجر ويدعى «ماهندرا» يهوى التجوال في البحر، والمجيء إلى هذه الجزيرة لأن له فيها ذكرى طيبة.. يقال إنه كان ملاحاً فقيراً، وجد في رمالها كنزاً كان مفتاح سعده.

وشى بعض زملاءِ البحّار به لدى الربان، فتوّعده بالجلد والتجويع إن هو عاد للحديث وإفشاء الأسرار لذلك المنبوذ الغريب،

فتجنبه يونس من تلقاء نفسه كيلا يؤذيَه ربانه.

في اليوم الثالث حضرت سفينة التاجر الهندي.. كانت أكثر رفاهية وفخامة من سفينة الطواش السابق.. راقب يونس الموقف عن قربٍ.. صعد النواخذة للقاء الثري الهندي مع اثنين من رجاله.. غابوا بعض الوقت ثمّ رجعوا.. أمر الربان برفع علمٍ أسود على أعلى الصواري إشارة إلى نفاد ما لديهم من لآلئ، وشرعوا يغادرون الجزيرة.

فكّر يونس بأن ربان «مشكاة الأمل» ربما تحدّث بالسوء عنه، وحذر منه الثري الهنديّ ورجاله، فإذا ذهب إليهم فقد يرفضون اصطحابه.. فليجربْ حلاً آخر.. تسلل يونس وسبح في هدوءٍ نحو السفينة ليستطلع الأمر ويرى إمكان التسلّق إليها وأيّ المواضع أنسب لذلك.. وجد بالصدفة حبلاً يتدلى منها.. بمقدوره الوثوب والتعلّق به، والصعود إلى سطحها، والاختباء في مكانٍ مناسبٍ منها.. ولكن إذا قبض عليه فالعاقبة وخيمة.. لن يصدقَ التاجرَ الهنديّ أنه سليمُ المقصد والنية.

ليس أفضل من الصدق.. فالصدق منج.. يعرف قليلاً من اللغة الهندية بحكم عمله.. لابدّ أن التاجر ورجاله يتكلمون بعض العربية.. اتجه إلى السفينة وخاطب حارسها.. قال إنه يريد لقاء السيد «ماهندرا» في أمرٍ عاجلٍ.. سأله ما ذاك الأمر.. قال إنه سرٌ ولن يبوح به إلى أحدٍ سواه!

دخل أحدُ الحرس حجرة التاجر لاستئذانه.. عاد بعد لحظات ليخبر يونس بأن سيّده لا يقابل شخصاً بغير سابق موعد وخاصة إذا كان مجهول الشخصية!

حار يونس ووجم.. أمره الحارس بالانصراف فوراً!

امتثل يونس لأمر الحارس وانصرف.. بعد قليلٍ شاهد السفينة تهمّ بالمغادرة.. فكر يونس بسرعة وقرر المجازفة.. سبح بهدوءٍ إلى السفينة، وتسلّق الحبل لسطحها.. غافل أحد بحارتها وتسلل من خلفه في حذرٍ، واستطاع أن يخدع بحارا آخر، ودلف إلى غرف السفينة.. كاد يشعر به أحد أحد الحرّاس، لولا أن أسرع بالاختباء خلف سجادةٍ مطويّة صادفها في الممرّ.. كانت تشاهده قطة فراحت تموء بصوت عالٍ أثار انتباه الحارس.. أخذ يدور حول البساط في دهشة، وهم بالمضي.. فجأة سمع عطسة مكتومة آتية من وراء السجادة.. يبدو أن بالسجادة غبارٌ عالقٌ أهاج أنف يونس فعطس.. أزاحها الحارسُ فاكتشف وجود يونس.. أمسك به، وصاح يستدعي زملاءه.. جاءوا مسرعين وحاصروا ذلك اللص الجريءَ المختبئ.. قبضوا عليه، واقتادوه إلى غرفة السيّد «ماهندرا»!

أدخلوه إلى رجلٍ في ملبسٍ هندي فاخر، يداعب القطة نفسها التي تسببت في كشفٍ أمره، وهي جالسة في سكينة على ركبتيه.. ألقى نظرة ليونس وأشار بيده أن ألقوه في البحر!

رجاه يونس أن يسمح له بالكلام.. قال بشجاعة:

- لستُ لصاً ولا أبغي بكم شراً.. ولو كنتُ كذلك ما استأذنت أحدَ حرسِكَ في شرف مقابلتك يا سيّد ماهندرا!

تعجب من ذكر اسمه بلسان الشاب.. هذا يعني أنه قد سمع عنه.. وشهد ذلك الحارس بصحّة كلام يونس.. فكر ماهندرا وقال وهو يمسح على شعر القطة الطويل الكثيف:

- هبْ أنك صادقٌ.. لِمَ طلبت لقائي؟

أطرق يونس، وهدّده صاحب السفينة مرّة ثانية بالإلقاء في البحر إن لم يصرّحْ بالأمر المهم الذي أتى من أجله!

ألهم الله يونسَ فقال على الفور:

- لؤلؤة كبيرة فريدة بلون الورد!

توجهت أنظار الجميع نحوه.. وكرّر ماهندرا السؤال وتلقى نفس الجواب!

أمره التاجر بإظهارها من فوره!

ارتبك يونس وراح يقلّب نظراته بين التاجر ورجاله.. قال متلعثماً وهو يتظاهر بفقدِ شيءٍ كان معه:

- كانت هنا في جيبي!

شرع يتحسس ملابسه، ويضع يده في جيوبه،، والتاجر ينتظر في لهفةٍ وقلق .. وارتياب!

ما هذا؟! شيءٌ ما في جيبه له حجم واستدارة لؤلؤة كبيرة الحجم.. أتكون حقاً لؤلؤة؟ يا ربي ما أكرمك!

أخرجها من جيبه وهو في عجبٍ شديدٍ.. من وضعها دون شعورٍ منه؟! لابدّ أنها ملكة عرائس البحر.. أودعتها جيبه أثناء طوافه بحجرة كنوزها.. أو ابنتها نجيمات الجميلة.. دسّتها فيه بينما يسبحان.. حملق التاجر إلى اللؤلؤة على راحة يده في انبهارٍ.. كانت بلون الورد والياسمين معاً ولكن في صفاءٍ نادرٍ.. سأله: من أين له؟

أجاب بأنه عثر عليها داخل محارة بساحل تلك الجزيرة!

بدا غير مصدقٍ.. لكن ماذا يهمّه من ذلك؟

سأله ماذا يريد ثمناً لها.. أجاب بأنه يترك عملية التثمين له..

قدّرها التاجر بعشرين روبية وهو ثمنٌ بخسٌ جداً.. يحاول التاجر خداعه لظنه أنه سرقها.. لكن غاية يونس ترك الجزيرة بأيّة وسيلةٍ وليس المال.. سأله يونس عن وجهته بعد مغادرة الجزيرة.. أخبره أنه سيذهب للملبار حيث قاليقوط بلد السيد ماهندرا .

قال يونس:

– قبلت بالثمن على أن تستضيفني على سفينتك حتى كولم.

وافق التاجر، وابتسم وهو يعدّ النقود:

– إليك الثمن خالصاً.. غير شاملٍ نفقاتِ الضيافة!

هكذا مضى يونس نحو ساحل الهندِ الغربي، وسرعان ما تآلف معه التاجر الذي حكى له عن التاجر جرير الكولمي.. كان على علمٍ جيدٍ به، وذكر ليونس أنه تزوّج أخت تاجرٍ صديق من كولم.

ووصلت السفينة ميناء كولم بعدَ قرابةً ثلاثة أسابيع من المسير.

***

نزل يونس في ميناء كولم او كولام درّة موانئ إقليم الملبار الهندي.. بلاد الفلفل الأسود.. يوصف الغني بأنه «كيس بهار» لا كيس ذهب أو فضة؛ إشارة إلى الثراء الواسع؛ ما يعني أن التوابل وخاصة الفلفل الأسود أثمن من الذهب والماس.. السفن تزخر بسلال الفلفل والتوابل الأخرى.. تعبق الأجواء بريحها الطيب.. كأن يونس يجول بدكان عطارةٍ رحيبٍ.. توجه إلى تجّار الحرير.. ابتاع قماشاً فاخراً لأمه وخطيبته.

حيرانُ هو دائماً.. يدبّر للعودة إلى مصر كما بدأ؛ بسفينة الشيخ جرير الكولمي.. صيته الطيب في القلوب وعلى الألسنة هنا

في كولم. سفنه مازالت رابضة في المرفأ.. يحمل الشيّالون إلى إحداها بضائع.. سأل عنه ملاحاً سودانياً تعرّفه في رحلة الذهاب.. أخبره أن الشيخ بخيرٍ، وينوي البقاء بجانب زوجته ومولوده منها حتى الموسم القادم.. ستبحر إحدى سفائنه بتجارةٍ إلى الصين.. لن يصحبها الشيخ جرير.. ستحط الرحال بمينائي «الزيتون» و«خانقو» هناك، وسوف تؤوب بسلعٍ صينيةٍ لكولم ومنها لمصر.. فرح يونس للشيخ.. رزقه الله بولدٍ من زوجته الهندية «نيراجا».. سيحضر وكيل الشيخ بعد دقائقَ والربان أيضاً.. سيتفق معهما على إيجاد أيّ عملٍ له على السفينة.. سيعتذر أيضاً عن تخلّفه في الرحلة الأولى، وسيروي ما حدث له في سقطرى.. فجأة صاح السوداني:

- إنهما قادمان!

نهض يونس وهمّ بالسير إليهما.. لمحه يسير نحو الميناء.. ابتهج.. بدّل وجهته بقدرٍ يسيرٍ، والملاح يصيح به في دهشةٍ ليغير اتجاه سيره بلا جدوى.. ارتفع صوته بالنداء.. التفت إليه أحمد سِنجايا.. إنها المرة الثالثة خلال الرحلة.. يونس من رآه أولاً هذه المرة.. أخبره أنه ذاهبٌ إلى وطنه.. جزيرة سومطرة.. سيمكث هناك حتى موسم الشتاء.. سأل يونسَ هل توصّل إلى دواءٍ لنسمات الأريج.. أوجز الحال في حركةٍ من يديه؛ راح ينفض كفيه.. لا شيء.. اقترح عليه أن يأتي معه لسومطرة.. هناك غاباتٌ وأدغالٌ ونباتاتٌ كثيرة.. هناك أيضاً حكماء القبائل والسحرة.. دهش يونس.. هل يقصد من يشتغلون بالسحر؟ لم يعتقد يوماً في السحّارين.. قال له السومطري: السحرُ معروفٌ من أيام القدماء..

وما قصة النبي موسى عليه السلام بخافيةٍ عليك.. الحسد أيضاً ذكره الله في كتابه الكريم، وله تأثير خفيّ على المحسود.. لِمَ لا تجرب وكلّ شيءٍ بقدرة الله؟

لم لا أجرب؟ ساءل يونس نفسه.. كان يتعلق بخيوط الأمل وإن تكُ واهية.. فلأذهبْ وأجربْ.. وما يريده الله سيكون.

يسافر أحمد على سفينةٍ تجاريةٍ قبطانها من أقربائه.. وافق القبطان على ركوب يونس كمسافرٍ عادي لا كعامل، استجابة لرغبته.. كان بحاجةٍ إلى بعض الراحةً والسكينة.. لقدً تعب كثيراً ويبدو أن متاعبَ جديدة تنتظره إذا كتب له بلوغ سومطرة.. أصرّ يونس أن يدفع كلفة السفر.. وأبحرتِ السفينة من كولم رأساً نحو جزيرة سومطرة في المحيط الهندي.

***

حلّ يونس بموطن السومطري.. جزيرة جميلة بديعة.. حملهما قاربٌ في نهر ينتشر على ضفتيه شجرُ جوز الهند والموز.. بلغا القرية التي تقيم بها قبيلة أحمد.. تقع على النهر في سهل يمتدّ بين جبلين.. بيوتها ذات أسقف مائلة.. احتفل أفراد قبيلة أحمد بيونس احتفالاً عظيماً.. فهذا ضيفٌ من بلد الأزهر الشريف.

في مساء اليوم التالي صحب أحمد صديقه إلى ساحرٍ اسمه «باسكورو».. تحدّث يونس إليه عن حالة المريضة وتولى أحمد الترجمة.. قال الساحر إنها مسحورة، وعلاجها زهرة نادرة جداً هي أكبر أزهار العالم.. لا تنبت إلا في غابات الجزيرة وتحت خمائلها.. يعرفها قليلٌ من المسنين والعجائز.. لونها أحمر أو برتقالي او بني.. لها خمس أوراق زهرية.. قطرها يقارب الذراعين

طولاً.. لا تعيش سوى بضعة أيام، تتحول بعدها إلى السواد ثمّ تتفتت وتتلاشى.. يقال إنها تتفتح كلّ مئة عام.. لا تنمو على ساقٍ ذي جذور وأوراق كسائر الزهور.. تنبت من شريطٍ يتغذى على النباتات الكثيفة المحيطة به.. تكون عديمة الرائحة تقريباً في البداية.. تصير رائحتها غريبة منفّرة مع مرور الوقت، فينجذب إليها الذباب والخنافس والحشرات المؤذية.

أصغى يونس للساحر وهو مدهوشٌ.. سأله عن مفعول تلك الزهرة وكيف تُعالِج؟.. رفض الساحر أن يجيبه قبل إحضار الزهرة!

اجتمعت عائلة أحمد حول يونس متعاطفين.. اعتزموا جميعاً مساعدته في البحث عن الزهرة.. أذاعوا الأمر بين القبيلة والقبائل الصديقة.. الجميع يتساءلون.. يتذاكرون.. لا أحد رآها.. قليل من الكهول سمعوا عنها في ثرثرات جدّاتهم.. امرأة عجوز واحدة تدعى «كيمالا» أقسمت أنها أبصرتها في غابةٍ على ضفاف البحيرة.. أبوها كان حطاباً وكانت وهي في سن الصبا تصحبه إلى الغابات.. نام أبوها ذات مرّة، فراحت تجول بالغابة.. رأت الزهرة.. وصفتها ليونس وصفاً دقيقاً.. كانت بلون اللحم، كبيرة الحجم جداً بالنسبة لأكبر الأزهار المألوفة.. خافت منها ومن الحشرات المجتمعة عليها، وفرّت من رائحتها الكريهة النفاذة.

تحدثت العجوز عن الزهرة حديث من رأى بعينيه.. الزهرة حقيقة إذنٌ وليست محض خيالٍ.. فسبحان الله!

وتواصل حوار يونس لنفسه.. زهرة شديدة الندرة.. هي زهرة تشذّ عن جميع الزهر حتى في الرائحة.. لا ساق تحملها ولا جذور تثبتها وتغذيها ولا أوراق كذلك.. تتفتح كلّ قرنٍ من الزمان.. كيف

يجدها؟ هل يواتيه الحظ الحسن ويصادف زهرة وحيدة في أوان تفتّحها؟

***

شدّ يونس الرحال إلى بحيرة «توبا» بصحبة أحمد وابن عمه «سيتيوان»، حاملين أسلحتهم، أمّا زادهم وماؤهم فموفورٌ طوال الطريق.. أعجب يونس بهدوء طبع سيتيوان، وتفاءل بابتسامته الطيبة، وباسمه الذي عرف أنه يحمل معاني الإخلاص والإيمان في لغتهم، فكان يدعوه أحياناً باسم «مؤمن».

ذكرت العجوز كيمالا المكان الذي شاهدت فيه الزهرة العجيبة على وجه التقريب.. وسط الأدغال الكثيفة.. ناحية البركان الخامد القديم.. ما يمنع أن توجد الزهرة على أيّ جانب من جوانب البحيرة الأخرى.. يعني أنهم بصددِ رحلةٍ لا يعلم مداها إلاّ الله.. الثلاثة يصلّون جماعة ويدعون ربهم أن يُقصّر أمد البحث، ويعثروا على الزهرة المنشودة سريعاً.

لم تكن البحيرة بعيدة.. بلغوها بعد نصف يوم من السير المتواصل الحثيث.. مشوا بين الأشجار وشاهد يونس قرُوداً مختلفة الأحجام والأنواع تتقافز بين فروعها وتعلو أصواتها.. رأوا الببغاوات بألوانها الزاهية والعصافير المزركشة.. كان هناك جماعة من وحيد القرن السومطري ترعى العشب الأخضر استلفتت يونس.. حلّ المساءُ وباتوا ليلتهم في دغلٍ يصل إلى ضفة البحيرة.. تناوب يونس ومرافقاه الحراسة.. واصلوا السير في الغابة المطيرة.. فكر سيتيوان بأن الزهرة تجذب الذباب والخنافس وبعض الحشرات الخبيثة إليها.. ما عليهم إلا تركيز انتباهم أثناء سيرهم، فإذا

صادفوا تجمعاً من الحشرات تتبعوه؛ فقد يوصلهم إلى الزهرة.

بدا أن الفكرة ستجيءُ بنتيجة.. ظهر ذبابٌ كثيفٌ يحوم في موضع بين الشجر.. اقتفوا أثره.. تبادلوا نظرات الدهشة عندما قادتهم أسرابُ الذباب إلى جثةِ نمرٍ نافقٍ!

ابتعدوا في الحال.. جلسوا يستريحونَ.. سرح سيتيوان بفكره.. قال:

- ذكّرني هذا النمر الميت بواقعةٍ قديمةٍ!

جعل يحكي.. «عندما كنت فتى في العاشرة، زارنا تاجرٌ من مصرَ، اعتاد زيارتنا في ذاك الزمن.. صحبه أبي في نزهةٍ وتبعتهما حتى أطراف الغابة.. شدّ انتباهنا مشهدٌ عجبٌ.. نَمِرَة طريحة العشب وسهم مغروس في عنقها.. كانت تحتضر، بينما صغيرها يرضع منها.. يبدو أن صياداً سدّد لها سهماً ولم تمت لتوّها.. مال الضيف على الصغير، وحمله وراح يمسح على شعره ودموعه تنهمر.. أحبّه النمر الصغير وبقي يتبعه وسافر معه إلى مصر.. وسمعت بعد ذلك أنه ربّاه حتى كبر وأسماه مهاباً».

هتف يونس:

- إنه الشيخ أبو الثناء الكوثري!

دهش سيتيوان لأن يونس يعرف الشيخ، وأخبره إن كان للكوثري مصلّى صغيرٌ على النهر، كان يعقد فيه حلقة درس، يقصده الأهالي لتلقي دروسٍ في العقيدة والعبادات وتعاليمٍ الإسلام، وأن النمر الصغير كان ينتظره إلى أن يصلّي ويفرغ من درسه ويتبعه كظله!

***

توغل الرفاق الثلاثة في غابات سومطرة لمدة يومين.. شاهد يونس خلالها ما بهره.. تنوع مذهلٌ لمختلفِ المخلوقات وبين الصنف الواحد أيضاً.. القردة.. السناجب.. الأرانب.. الفئران.. ..الغزلان.. الخفافيش.. رأى أنواعاً غريبة لم يرها أو حتى سمع عنها.. أبصر قرداً ذا شعر بني يميل للاحمرار بلا ذيلٍ يشبه الإنسان.. يسمونه هناك باللغة الملاوية «أورانجوتان» وترجمتها إنسان الغابة.. لاحظ يونس أنه ذكي، تعبر ملامحه عن المشاعر المختلفة.. شاهد إحدى الأمهات تمسك صغيرها في يدها ويمشيان معاً، وواحداً منها قطع غصنا قصيراً من شجرةٍ.. نزع أوراقه وأستخدمه كإداةٍ لتنظيف ثمرةٍ من شعراتها المؤلمة الشبيهة بالزجاج، واستخلص من داخلها بذورها اللذيذة، وراح يأكل في سرورٍ.

لفت نظره قردٌ من الأورانجوتانِ يصدر أصواتاً كأنه يخاطب الآخرين.. رآه يصطحب آخر إلى أيكةٍ قريبةٍ وسارا حذرين، وعادا بعد قليلٍ وعلى وجهيهما تعبيرات الدهشة.. أسرعت جماعة من القرود إلى المكان نفسه، ورجعت وهي تتهامس وتغمغم.. ذهب يونس من حيث آبت القرود، وأزاح فروع الشجر لتسفر عن شيءٍ عُجابٍ.. لقد صدق حدسه.. وقعت عينه على الزهرة الحمراء العجيبةٍ فوق العشب الغزير.. لا يظنّ أن على الأرض أكبر منها.. هي بالفعل أضخم زهرة.. زهرة سومطرة!!

أفاق يونس وصاحباه من الدهشة.. تقدّم يونس لقطف الزهرة.. توقف على بعد بضع خطوات منها وقد هاله ما يرى.. ذبابة تنينٍ سوداء كبيرة تحط عليها، حجمها يعادل عصفوراً كبيراً.. راحت الذبابة تدور حول نفسها وتصدر طنيناً مزعجاً.. ما ذبابة

التنين تلك؟.. ولونها الغريب؟ أتراها حارسة الزهرة؟

سلّ يونس سيفه متأهباً لشطر الذبابة نصفين لحظة ابتعادها قليلاً عن الزهرة.. بدت كأنها ملتصقة بها.. توقع يونس أن بقاءها سيطول.. أمسك بعصا طويلة رفيعة ليهشّها وتأهب أحمد وابن عمه لضربها بالسيف عند طيرانها.. نخسها يونس بطرف العصا.. طارت الذبابة وهي تطنّ طنينها الرهيب، وتفادت ضربات السيف المتلاحقة لسرعة حركتها الفائقة.. حطت للحظة على رقبة سيتيوان، فصرخ من الألم!

عادت ذبابة التنين الضخمة والتصقت بالزهرة، بعد إغارتها الناجحة الزاجرة على القادمين.

انشغل يونس وأحمد بتطبيب المصاب، ووضع الطين الرطب البارد على الإصابة، ولفها بورقة عريضة من شجرة.. كان موضع نزول الحشرة مؤلماً حارقاً شديد الاحمرار.. قال سيتيوان إنه شعر كأن إبراً حادة بأرجل الذبابة وخزته، وأعقب ذلك شعور بتهيجٍ شديدٍ في جلده.

خفّفت ضمادة الطين من ألم سيتيوان كثيراً.. واستعدّ يونس لجولة جديدة مع الذبابة السوداء.. وشاء الله أن يكفيهم القتال، ويدرأ عنهم شرّ الحشرة المؤذية.. انقضّ عليها في لمحةٍ خاطفةٍ شيءٌ داكن الخضرة يفوقها حجماً، تبينوا أنه حشرة اليسروع أو فرس النبي.. قبض فكّاها القويّان على ذبابة التنين، واختفت بها بين الغصون.

***

عاد يونس يحمل الزهرة في كيسٍ من القماش المتين، ومضى بها مع أحمد لساحر سومطرة.. لم يحسَّ من فرحته بثقل وزنها.. كانت تعادل عشرات الورود الكبيرة وزناً.. لم يدرِ ماذا سيفعل بها؟ وكيفية استعمالها كدواءٍ.. يبدو أنه وجدها بعد قليلٍ من تفتّحها؛ لأن رائحتها لمّا تزلْ خفيفةً.

نظر الساحر «باسكورو» للزهرة بعينان تلمعان بالطمع.. حدّق كذلك إلى الخاتم.. فطن يونس لذلك، فبادر بالقول: إنه يتمنى أن يعطيه هدية تليق به.. لكنه لا يملك شيئاً ذا قيمة.. حتى هذا الخاتم الزائف يحمله بصفة أمانة!

ظهر في وجه باسكورو الحنق الشديد على يونس.. ذلك الشاب الغريب الذي قطع المسافات من أجل الدواء.. يريده بالمجان ويبخل حتى بخاتمٍ من نحاسٍ!

قال الساحرٍ في نفسه وقد سوّلت له أخذها: لن أدع هذه الزهرة تفلت مني وقد طال انتظاري لها.. ستفيدني في عملي وأربح منها مالاً كثيراً وأصيب شهرة عظيمة.. عندما يعلم الناس أنني أملك الزهرة العجيبة.. سأصير بها سيّد السحرة وكبيرَهم.. لا أضمن أن تقع في يدي مرة ثانية.. قد أعياني البحث عنها، ونالها هذا الشاب بمحض مصادفةٍ، فهل أتركها له.. الآن هي ذي أمامي.. فلأعملْ سحري وحيلتي!

سأله يونس عن طريقة استعمالها.. أجاب الساحر ودخان البخور يتصاعد أمامه:

– هذه الزهرة مفعولها مؤكدٌ في طرد الأرواح الشريرة وإزالة السحر عن المسحور والحسد عن المحسود.. بحرق ورقة من

ورقاتها الخمس في حجرة المريضة المغلقة كلّ يوم عند الفجر يتلاشى الداء!

لم يشعر يونس بالارتياح نحو «باسكورو».. ساوره الشكّ في قدرة هذه الزهرة الغريبة على علاج نسمات الأريج، لكنه كان كالغريق الذي يتعلق بقشّة.

طلب الساحر من يونس أن يعطيه الزهرة كي يقرأ عليها التعاويذ ويمارس طقوسه السحريّة؛ لتؤدي تأثيرها العلاجي.

سلمه يونس الزهرة في داخل كيسها.. أخرجها من الكيس في الضوء الخافت وراح يحرّك فوقها رِجْلَ طائر سوداء، ويتلو كلماتٍ غير مفهومة وهو يطلق البخور.. أحضر ثلاث قطع من قماشٍ لين أملس كالحرير، لف حول الزهرة قطعتين واحدة بعدً أخرى، ووضع اللفافة على القطعة الثالثة، ثمّ صرّها وعقد أطراف القماش الأربعة بإحكام بضع مراتٍ، وجاء بمقصّ وطلب إلى يونس قطع نهايات عُقد الصرّة.. وعاد يحرك يديه متمتماً فوق الصرّة.. وسلمها إليه وقال:

– لا تفكر أن تفتحها وانسها تماماً حتى تعود إلى بلدكَ.. لو انفتحت لضاع السحر!

***

قضى يونس أياماً جميلة في ضيافة أحمد سِنجايا وأسرته.. في سومطرة.. بلد كلّ عجيبٍ وفريدٍ على هذه الدنيا.

حان السفر وودعه أحمدً وابن عمّه سيتيوان.. غادر إلى مصر فوق سفينة تجارية محملة بتوابل الجزيرة وعقاقيرها وبخورها.. جوز الطيب.. الكافور.. خشب الصندل... مرّت بكولم بالهند لتتزود

بالمؤن، وأبحرت إلى عدن، ودخلت البحر الأحمر واتجهت شمالاً نحو عيذاب.. وبعد بضعة أيام بلغت ثغر عيذاب.. أخيراً آب يونس بسلامة الله لأرض الوطن!

كان أوّل ما فكر فيه هو دواءُ نسمات الأريج.. صار في بلده مصر.. أيفتح الصرّة هنا أم يصبر حتى الوصول إلى قوص.. الأفضل في الفسطاط.. أو في منزل عمّه بالأزهر.. هل يقدر أن يقاوم لهفته؟ وإلى متى؟ يريد أن يطمئن قلبه إلى وجود الدواء الشافي معه بعد رحلة البحث المضنية.. لعلّ الله أن يضع فيه الشفاء!

***

لم يستطعْ يونس صبراً أكثر من ذلك.. في المركب التي تقلّه في النيل إلى الفسطاط أراد أن يلقي نظرة سريعة إلى زهرة سومطرة.. أخرج الصرّة من الخرج.. هل يقطع الصرّة ويراها؟ حملها.. أتراها قلّ وزنها أم يتوهّم ذلك.. ماله يحسّ بها خفيفة؟!

ربما جفّت الزهرة وخسرت شيئاً من وزنها أثناء الرحلة، ولم يلحظ ذلك لوجودها مع ملابسه وأشيائه في الخرج.

لابدّ أن يشاهدها ويتيقن الآن.. لابدّ.. شقّ الصرّة الحريرية بسكين.. فتحها.. وجد بها تراباً!

ماً من شيءٍ في الصرة غير تراب!

عزّ عليه حتى البكاءُ.. كان يريد أن يبكي فعصته دموعه!

٩

كان وقع الصدمة عليه شديداً.. في الأمر سرّ لا يعرفه إلاّ «باسكورو».. كان في حاجةٍ إلى من يخفف عنه.. قرّر أن يذهب للشيخ أبي الثناء الكوثري أولاً.. أقواله يتردّد صداها في أذنيه الآن، وهو يتفوّه بأسماء أشخاصٍ سيقابلها في الرحلة.. لم يلفته ذلك من قبل.

بلغ خلوته بالمقطم.. أبصره النمرُ مهاب فأسرع لدخول الكهف.. خرج سريعاً وتبعه الشيخ بعد لحظاتٍ.. رحّب به أبو الثناء وحمد الله على أوبته بسلامة الله.. جلسا على المقعدين المتقابلين مثل أوّل مرّة.. أخبره بأنه لم يعثر على عشبة الشفاء إلى الآن، وإن وصف له بعض الناس أدوية أخرى لكنه فقدها كلها بطريقةٍ أو بأخرى.

قال الشيخ بوجهٍ باسمٍ:

– قلت لك في اللقاء السابق إنها موجودة والله لن يضيع اجتهادك هباءً!

قال يونس في نبرة اليائس:

– كنت أريد أن أدخل البهجة على نسمات الأريج وأبيها وأمي ولكن ضاع أملى!

قال أبو الثناء:

– لا تيـأس من رحـمـة الله يا يونس.. مـا يدريك؟ قـد تكون مـريضتك قـد شـفيت بإذن الله.. وقد تجـد دواءها من حيث لم تكنْ تتوقع.

قال يونس:

– أخـبـرتني أنني سـأقـابل صـابـراً وقـد قـابلت صيـاداً اسـمـه أبو أيوب.. رزقـه الله بولدٍ بعـد صـبـرٍ طويل.. وقـابلت صـالحـاً في سـقطرى، وراشـداً في ظفـار، وأحـمـد مـراتٍ ثلاث.. ورأيت سـمكة وفتاة بلقائي نجيمات عروس البحر!

ابتسم الشيخ وقال:

– لا تحمّل كـلامي فوق مـا يحتمل.. كنتَ ذاهبـاً في رحلةٍ طويلةٍ ولابدّ أن تقـابل في أثنائها إنسـاناً صابراً وصـالحاً وراشـداً، ومادمت في بلاد المسلمين فـلابدّ أن تلاقي أكثر من أحـمـدَ واحـدٍ، ومـادمت بالبحر فسترى سمكة وتصادف فتاة في ميناءٍ أو مدينةٍ.

سكت الشيخ ليرى وقع كلماته على يونس المرتاب وأكمل:

– لابدّ أن قـابلت خـلال رحلتك أشـراراً وأخـيـاراً ولصـوصـاً وطمّاعين وعجائب وغرائب.. إنها الدنيا يا ولدي!

استـأذن الشيخ من يونس وتمدّد على الحصيـرة أمـام الكهف.. قال إنه كان على سفـرٍ أيضاً، وقَدِم منه لتوّه. شـعر يونس أن الشيخ يريد الراحـة مثله، ولم يشأ أن يثقل عليه. ودّعه وسار إلى زير مـاءٍ بظلّ شـجـرة السنط ليـشـرب.. لمح على حـجـرٍ إلى جـوار الـزير مصحفاً وسبحة.. السبحـة ثمينة.. حبّاتها من العـاج المطعم بالفضة والفيروز.. كـأنها مسـبحـة الرجل الذي التقاه في رواق جـامع عمـرو بالفسطاط.. ربما هي نفسها!

وبينما يملأ الكوز وقعت عينه على زهرة بريّة صغيرة نبتت بجوار الزير.. سبّح لله العظيم.. شرب وألقى نظرة على الشيخ الغافي ومشى!

***

جعل ينزل.. وفي طريقه التقى الراعي الصغير.. لم يره في هذا المكان عندما كان يصعد الجبل.. لابدّ أنه أتى منذ قليلٍ.. تذكر اسمه: نائل.. الراعي.. مازال يحفظ شكله.

سلّم عليه الراعي بمودةٍ.. سأله: اتذكر نعجتي؟

قال يونس:

- المريضة؟ التي أكل الذئب ولدها الصغير؟

أجاب الصبي بنعم، وأشار إلى نعجةٍ بصحةٍ جيدةٍ، معها حملٌ يلهو بجوارها:

- هي ذي.. كما تراها الآن شفيت وأنجبت حملاً جميلاً.. ببركة الله والعشبة الشافية!

قال يونس بدهشةٍ:

- العشبة الشافية.. من حدثك عنها؟!

قال الراعي:

- قابلني شيخٌ وشكوت له مرضَ نعجتي وحزنها على وليدها، فقال لي أبحث عن عشبة الشفاء، ولم يكن يعرف أين توجد.. ووجدت النعجة ترعى زهرة برية وتقبل عليها فشفيت شيئاً فشيئاً وعادت لطبيعتها.. ولذلك أدركت أن تلك الزهرة هي عشبة الشفاء.

سأله يونس عن مكان تلك الزهرة، فسار معه خطوات قليلة وأشار إليها.. تعجّب يونس.. إنها من نوع الزهرة البرية الصغيرة

التي نمت بجوار زير الماء، وتنتشر بكثرةٍ على الجبل!

فكّر يونس بأن الزهرة التي شفت النعجة يمكن أن تشفي الإنسان أيضاً!

أعطاه نائل كيساً.. ملأه يونس بزهرة الجبل البرية.. وانطلق إلى نسمات الأريج!

١٠

صحب يونس أمّه إلى بيت عمّه جمال الدين.. عمّتهم السعادة لاجتماع شملهم برجوع يونس.. حمل لنسمات نصيبها من حرير الهند الرائع.. قال إنه أتى لها بالدواء الشافي بمشيئة الله.

أعطاها الخاتم.. وضعته في إصبعها.. بعد لحظاتٍ أخذت نسمات تحملق إلى بريق ذهبه وإلى صفاء فصه الزبرجدي بوجه كلّه فرحة، وسط دهشتهم جميعاً.

هتف يونس:

- أنت السعيدة الحظ يا نسمات.. وسيكون هذا الخاتم فاتحة خيرٍ عليكِ!

وقال: إنه سيحكي لهم عن رحلته من بدئها لختامها بعد شفاء نسمات بإذن الله!

***

جفّف يونس العشب الزَهريّ وطحنه وحوّله لسفوفٍ.. ظلت نسماتُ تتناول جرعة من المسحوق ثلاث مرّاتٍ يومياً طوال أسبوع.. كانت مسرورة لرؤية خطيبها يونس، وعجّل ذلك من شفائها.. ففي نهاية الأسبوع نطق لسانها بالكلام، وأشرق وجهها بالابتسام، وزال حزنها، وبدأت تستعيد مرحها السابق.. أسرع يونس بالاتفاق مع عمّه على موعد عقد القران والإعداد لحفل الزفاف.. وزفّت

نسمات الأريج إلى ابن عمها يونس بن صفاء الدين في احتفالٍ بهيجٍ.

***

مرّت الأيام وأجرى الله الرياح بأمره وحلّ موسم السفر.. ودّع يونس زوجته نسمات الأريج وهو في غاية الفرحة.. نسمات تنتظر حادثاً سعيداً وسيصبح أباً لأوّل مرّة.

قصد فندق الكارم بالفسطاط ليبحث عن عملٍ.. توقف ليشرب تمراً من بائع جوّال.. أحسّ بيدٍ تربت على كتفه.. استدار ليجد نفسه وجهاً لوجهٍ مع أبي بكر التمبكتي.. دعاه يونس لكوب تمرٍ، وسارا معاً.. أخرج أبو بكر كيساً من القماش وقدّمه ليونس.. أخبره انه جاب الواحات والصحراوات بحثاً عنها حتى وجدها.. سأله: دَهِشاً: ماهي؟.. أجابه:

- عشبة الشفاء!

رنا إليه يونس بامتنانٍ وقال:

- بل عشبة الوفاء!

واحتضنه في مودةٍ صادقةٍ.. وقال:

- أتدري ما أتمنى الآن؟ أن تجمعنا رحلة إلى الجنوب.. عبرَ درب الأربعين.. إلى السودان.. وبلاد السودان الغربي.. بلادكم السمراء الرائعة.. مالي!